المبحث الخامس
حركة المقاومة الإسلامية في العهد السلجوقي ما بين الغزو الصليبي وظهور عماد الدين زنكي

أولاً: الفقهاء والقضاة واستجابتهم لمقاومة الغزو الصليبي:

أيقظت صدمة سقوط القدس غفوة العديد من الفقهاء والقضاة وأدركوا حقيقة ذلك الغزو بعد أن هدد وجودهم ومكانتهم في مدن تلك البلاد فضلاً عن الأرض والعقيدة الإسلامية؛ ولذلك بادر فقهاء وقضاة الشام من دمشق وحلب وطرابلس للاستنجاد بالسلطة المركزية ببغداد، والإمارات المحلية باعتبارها تملك القوة العسكرية القادرة على مواجهة ذلك الغزو[1].

1 - استنجاد فقهاء وقضاة دمشق بخلافة بغداد: لم تكن دمشق في البداية هدفاً لذلك الغزو، ولكن فقهاءها وقضاتها أدركوا خطورته على مدينتهم التي كانت لا تختلف عن القدس، فهي ملتقى لطلاب العلم والفقهاء والقضاة من أقاليم الخلافة الإسلامية كافة، وخاصة عندما عرفوا ما حل برفاقهم هناك؛ ولذلك اتفقوا على إرسال وفد من قبلهم (عام 492هـ/1098م) برئاسة قاضي دمشق زين الإسلام محمد بن نصر أبو سعد الهروي ت 519هـ إلى مركز الخلافة الشرعية وبغداد، ومدن كبيرة في بلاد العجم، وشرفت له الحال؛ وعظمت رتبته وعلاجته كما يقول السبكي؛ ولذلك كان اختياره إشارة واضحة لضخامة المخاوف والآمال التي كانت تجول بأذهان فقهاء الشام وقضاتها[2]، وقد استقبله الخليفة العباسي المستظهر بالله (486 - 512هـ) (1091 - 1118م) مع جماعته وأورد في الديوان كلاماً في حال المسلمين في القدس والشام، والتهديدات الصليبية لوجودهم، ولكن دون جدوى؛ ولذلك فكر القاضي الهروي في خطة ذكية لإثارة السكان في بغداد كوسيلة للضغط على الخليفة حتى يرغمه في التفكير جدياً بطلبهم ودعوتهم عن طريق استخدام الجوامع في بغداد مركز الرأي العام الإسلامي هناك وهذه هي المرحلة الثانية [3]من مهمتهم.

وقال ابن الأثير في ذلك: وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد، صحبة القاضي أبي سعد الهروي - فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمع، فاستغاثوا، وبكوا وأبكوا، وذكروا ماداهم المسلمين بذلك الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد، ونهب الأموال، فلشدة ما أصابهم أفطروا فأمر الخليفة أن يسير القاضي أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم الزنجاني، وأبو الوفاء بن عقيل، وأبو سعد الحلواني [4] إلى السلطان السلجوقي بركياروق في أصفهان مقر السلطة السياسية والعسكرية الفعلية لمساعدة فقهاء دمشق في طلبهم، ولكي يتخلص من عبئهم ويحمله مسؤولية تلك المهمة حتى أن اختياره لأولئك الفقهاء كان ذكياً هو الآخر؛ لأن البعض منهم تشير ألقابهم إلى أن أصولهم من مناطق فارس

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 68.
(2) المصدر نفسه ص 68، المنتظم (195/9 - 224).
(3) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي 68.
(4) الكامل في التاريخ (408/8).

وبلاد ما وراء النهر - دامغان - مفارقين - زنجان وأنهم لربما بإمكانهم التأثير في سلاجقة فارس، لإمدادهم بالقوة العسكرية، فالدامغاني ولي قضاء نيسابور، والشاشي ولد بميافارقين ودامغان لم تبعد كثيراً من أصفهان ولكن هدف الوفد كان بعيداً عن التحقيق، وعند وصول ذلك الوفد إلى مدينة حلوان علم بمقتل الوزير السلجوقي مجد الملك البلاساني، واختلاف سلاطين السلاجقة ببلاد فارس حول حكم المنطقة وبذلك عاد الوفد من بغداد دون أن يكمل نجاحاً [1]، وعاد القاضي ورفقته بغير نجدة ولا قوة إلا بالله [2]، ودافعت دمشق عن نفسها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً كما سيأتي بيانه بإذن الله.

وفي عام 513هـ/ 1120م عندما حاصر الصليبيون دمشق أرسل أميرها وفداً آخر للخلافة العباسية في بغداد يطلب لطلب نجدتها مرة أخرى. وترأس هذا الوفد القاضي عبد الوهاب بن عبد الواحد الشيرازي الدمشقي الذي كان آنذاك شيخ الحنابلة بالشام إلى الخليفة المسترشد بالله (512 - 529هـ) وذلك لمكانة العائلة الشيرازية بدمشق آنذاك لكونها تحتل زعامة الفقه الحنبلي في تلك المدينة، وتدير العديد من المؤسسات الدينية في القضاء والوعظ والتدريس، وإمامة الجوامع، وعلى الرغم من أن القاضي الشيرازي قد تمكن من مقابلة الخليفة العباسي في بغداد الذي خلع عليه ووعده بالإنجاد إلا أن مهمته لم تؤت بالشيء الجديد كما هي الحال بالنسبة لمهمة زميله الهروي، ويبدو أن الخلافة العباسية كانت عاجزة لا تملك شيئاً غير الوعود بالمساعدة، ولعل القاضي الشيرازي أدرك هو الآخر عجز السلطة السياسية والشرعية في بغداد ولجأ للاعتماد على النفس والعودة إلى دمشق وتعبئة سكانها للدفاع عنها، حيث كان له مجلس يعظ فيه للجهاد، ويلقى تأييداً من حكام المدينة حتى وفاته عام 536هـ [3].

2 - القاضي الأمير: فخر الملك بن عمار والاستنجاد بالإمارات المحلية وخلافة بغداد: في بداية الغزو الصليبي لبلاد الشام هادن فخر الملك الغزاة وأمدهم بالمال والمرشدين ليبعدهم عنه لكن ما إن تحقق هدفهم في أخذ بيت المقدس حتى تفرغوا له وحاصروا طرابلس وتوجه ابن عمار في طلب النجدة من الإمارات المحلية في مدن الشام والجزيرة، واستطاع أن يقاوم الحصار، وراسل السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه شارحاً له حالة طرابلس وأحوال بلاد الشام أمام مخاطر ذلك الغزو [4]: وتتابعت المكاتبات إلى السلطان محمد بن ملكشاه من فخر الملك بن عمار، صاحب طرابلس بعظيم ما ارتكبه الإفرنج من الفساد في البلاد، وتملك المعاقل والحصون بالشام والساحل والفتك في المسلمين، ومضايقة طرابلس، والاستغاثة إليه والاستصراخ والحصن على تدارك الناس بالمعونة، ولم يكن من أمر ذلك السلطان إلا أن يبادر بالكتابة إلى أميريه في الحلة حيث الأمير سيف بن صدقة، وجكرمش أمير الموصل، وحثهما على نجدة ابن عمار وتقويته بالمال والرجال على

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 70.
(2) ذيل تاريخ دمشق ص 233، 234، موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 70.
(3) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (2/89 - 199).
(4) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي.

الجهاد، وأنه سيمنحهما منطقتي الرحبة وما على الفرات إن هما ساعداه [1].

وأرسل السلطان محمد حملة بقيادة " جاولي سقاوة " بحجة أنها متجهة لنجدة ابن عمار في طرابلس، فاستولى على الموصل بدلاً من نجدة طرابلس، التي لم يتوجه إليها إطلاقاً [2] وأدرك القاضي ابن عمار عجز القوى الإسلامية المحلية كلها عن نجدته، وقرر التوجه بنفسه إلى بغداد مقر الخلافة العباسية ووصل الأمير محملاً بالهدايا والتحف الثمينة[3]، ورغم الحفاوة التي استقبل بها في بغداد إلا أن رحلته لم تحقق نجاحاً في الأهداف التي سعى من أجلها، كما هو الحال لمدينة دمشق وقضاتها الهروى والشيرازي [4].

3- استنجاد فقهاء وقضاة حلب بخلافة بغداد: وكان لعائلة ابن أبي جرادة الدينية المتولية أمر القضاء والإمامة بحلب دور تحمل تلك المهمة في طلب نجدة من بغداد، عندما تعرضت حلب هي الأخرى بحكم موقعها الإستراتيجي لخطر الغزو الصليبي عام (504هـ/1111م) فقد أرسلت وفداً من الفقهاء وأعيان البلد، والذي يبدو كان برئاسة قاضي حلب أبي غانم هبة الله بن أبي جرادة إلى بغداد، وكان يعتقد بتحقيق هدفه في نجدتها؛ لأن وجوده بحلب كان بسبب علاقته الوطيدة بالسلطة الشرعية ببغداد [5]، وأمام فشل ذلك القاضي وجماعته في عدم التمكن، من مقابلة الخليفة العباسي المستظهر بالله أدركوا حقيقة ضعف ذلك الخليفة عن قرب، وأن السلطة الفعلية ليست بيده بل بيد السلطان السلجوقي؛ لذا بدأوا به أولاً بإثارة السكان ضده، حيث دخلوا الجامع الذي يقرب داره يوم الجمعة، فأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه.. وصاحوا لما لحق الإسلام من الإفرنج. وشرحوا للناس ما حل بإخوانهم المسلمين في حلب وأعماله ومدن بلاد الشام من تدمير وخراب على أيدي الغزاة الصليبين، مما أدى إلى استجابة الناس وشحذ همهم؛ لكنهم لم يستطيعوا الوصول إلى مقر السلطان بركيارق، الذي منعهم حراسه من مقابلته. غير أنه أوعز إلى حراسه ليبلغوهم أنه سيرسل قواته لإنجادهم [6].

وقرَّر فقهاء حلب التوجه مرَّة أخرى إلى الخليفة المستظهر بالله نفسه: فاندفعوا إلى دار الخليفة بعد أن دخلوا جامع القصر، ومنعوا الناس من الصلاة وشرحوا أمرهم لهم، فثار الناس من حولهم[7]، وكان ذلك الأمر قد أجبر الخليفة العباسي على ضرورة مقابلتهم وقولهم له: أما تتقي الله أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام حتى أرسل إليك في جهادهم [8].

وهنا يشير النص السالف الذكر إلى أن وجود فقهاء حلب ببغداد عام 504هـ/1111م قد تزامن

(1) موقف فقهاء دمشق ص 76.
(2) موقف فقهاء دمشق ص 76.
(3) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 77.
(4) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 77.
(5) المصدر نفسه ص 78.
(6) ديل تاريخ دمشق ص 276.
(7) موقف فقهاء الشام ص 79.
(8) الكامل في التاريخ (541/8).

مع وصول وفد الدولة البيزنطية إلى بغداد أيضاً؛ للتفاهم مع الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي حول إمكانية توحيد جهودهما لمواجهة الخطر الصليبي لبلاد الشام مؤكداً للجانب الإسلامي بأن الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنيوس: قد منعهم من العبور إلى بلاد المسلمين وحاربهم [1] ويفهم من هذه الرواية أن الجانب البيزنطي أراد الاستعانة بالجانب الإسلامي لمواجهة ذلك الخطر الصليبي، خاصة بعدما نقض الصليبيون الاتفاقية المُبرمة مع البيزنطيين (عام 490هـ/1096م) والتي تضمنت إرجاع الممتلكات البيزنطية في بلاد الشام في حالة استعادتها من الجانب الإسلامي. على أية حالة لم يكن فقهاء حلب أوفر حظاً مع خلافة بغداد عن بقية وفود المدن الشامية الأخرى. رغم ما أشار إليه ابن كثير أن فقهاء بغداد وعلى رأسهم الفقيه "ابن الدغواني" قد استجابوا لفقهاء حلب، وقرروا الخروج معهم لجهاد الصليبيين في بلاد الشام، ولما علموا بما آلت إليه تلك المدن من وقوعها تحت الغزو الصليبي رجعوا إلى بغداد ولم يفعلوا شيئاً [2]، ومهما يكن من أمر تلك الرواية يبدو أن فقهاء حلب قد سئموا من نجدة الخلافة في بغداد، وتوجهوا للاستغاثة بالإمارات المحلية لنجدتهم [3].

4 - دور الفقهاء والقضاة في التحريض على الجهاد بالكتابة والتأليف: لم تكن الاستجابة من قبل الفقهاء والقضاة في بلاد الشام ضد الغزو الصليبيين مقتصرة على الاستغاثة وطلب النجدة، بل تعدت إلى العديد من الوسائل الأخرى التي من بينها الكتابة والتأليف في الجهاد ضد ذلك الغزو، لتهيئة الأجواء الفكرية، وتثقيف المسلمين عامة، حيث نالت اهتماماً كبيراً من حملة الفقهاء والعلماء قبل وأثناء الغزو الصليبي، فقد كانت حاجة العصر للتعبئة الفكرية، ونشر الثقافة الإسلامية، أصبحت من الأمور الأساسية آنذاك في وقت كانت بلاد الشام تخوض صراعاً سياسياً، ومذهبياً عسكرياً انعكس على تدوين التاريخ في الشرق العربي، وظهور العديد من المصنفات والتراجم حول سير السلاطين والملوك والأسر الحاكمة وأحداث القتال، والصراع ضد الصليبيين ولذلك اندفعت فئة الفقهاء والقضاة إلى تنوير مجتمعاتها الإسلامية، الذي جاء مجسداً عبر مؤلفاتهم وكتبهم خلال مجموعتين:

الأولى: ركزت على التأليف والوعظ بصورة تقليدية؛ وتوضيح أمور وأركان الدين الحنيف للناس.

والثانية: التي توجهت للتحريض والتأليف في الجهاد، وحث المسلمين عليه، لأنها أدركت الضعف العام في إيمان المسلمين عليه؛ وتركهم لأمور دينهم لذلك كتبت الكثير من المصنفات قبل وأثناء الغزو الصليبي في بلاد الشام والذي يهمنا هنا المؤلفات التي حرضت على الجهاد الإسلامي وتعبئة المسلمين بأمور دينهم للوقوف بوجه ذلك الغزو [4].

---

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن موقف فقهاء الشام وقضاتها ص 80.
(2) البداية والنهاية نقلاً عن موقف فقهاء الشام وقضاتها ص 80.
(3) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص 91.
(4) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 93.

ومن أبرز أولئك الفقهاء:

- الفقيه علي بن طاهر السلمي (431 - 500هـ / 1039 - 1106م): هو علي بن طاهر بن جعفر القيسي السلمي الدمشقي الشافعي، كان من علماء بلاد الشام وعلى إثر مجيء ذلك الغزو تحول إلى واعظ ومحرض على الجهاد، بإلقائه الخطب والدروس في المساجد التي تنقل فيها عبر مدن بلاد الشام وفلسطين، حيث جسد ذلك في كتابه الجهاد، الذي جاء عقب سقوط بيت المقدس عام 492هـ/1098م. وذلك من خلال إحدى خطبه التي حث فيها المسلمين على الجهاد ضد الغزو: فإن المجاهدين لهذه الطائفة الظافرين بهم الموفقين في إخراجهم من بيت المقدس وغيرها من هذه البلاد [1]، وركز السلمي في أبوابه الأولى من كتابه الجهاد على العديد من القضايا والأفكار الهامة التي كانت عليها: بلاد الشام، والعالم الإسلامي آنذاك. مبتدئاً سياسة صليبية عامة استهدفت الأندلس وصقلية وبلاد الشام. إذ أنه أول من نبه إلى وحدة أهداف الحروب الصليبية سواء في الأندلس، أو في صقلية أو في بلاد الشام، تلك الفكرة التي أخذها المؤرخون فيما بعد، وطوروها، فقد ذكر ابن الأثير: وكان ابتداء دولة الإفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام، واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا مدينة طليطلة، وغيرها من بلاد الأندلس.. ثم قصدوا سنة أربع وثمانية وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها.. فلما كانت سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام [2].

وأدرك أن ضعف العالم الإسلامي، وتشرذمه وتجزئته هو العامل الرئيسي وراء نجاح الغزو الصليبي في المشرق أو المغرب الإسلاميين وليس قوة الصليبيين أنفسهم: وركز على التجزئة السياسية لبلاد الشام بصورة خاصة؛ لأنه عاش وأحس بالمعاناة هناك، وتثاقل السكان عن جهادهم [3]، وذكَّر السلمي المسلمين بفكرة استمرارية الجهاد سواء في الحرب أو السلم كجزء من سياسة عامة يجب على الأمراء والخلفاء المسلمين القيام بها كشرط أساسي للمواجهة الناجحة، ففي كل عام يجب على الأمير المسلم القيام بحملة خارج ديار الإسلام لا لطمع، أو لغنيمة يبتغيها، وإنما للمحافظة على دار الإسلام من عدوان غير المسلمين، وإشعارهم بالرهبة وقوة المسلمين بالاستمرار تجسيداً للرأي القائل في العصر الحاضر بضرورة نقل المعارك إلى أرض العدو دوماً [4].

وذكَّر السلمي الأمراء المسلمين بأن ذلك الغزو لم يكن هدفه الأرض والعقيدة فقط وإنما هدفه هو إزالتهم من سلطاتهم، وإخراجهم من البلاد التي تحت أيديهم، وذلك بهدف إثارة حميتهم، وحثهم على الجهاد[5]، وطلب من عامة الناس مساندة أمرائهم وقادتهم المجاهدين الذين يتبعون السلف

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 93.
(2) الكامل في التاريخ (397/8).
(3) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 94.
(4) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 95.
(5) المصدر نفسه ص 95.

الصالح لمواجهة تلك المحنة، وطرد الصليبيين [1]، والقارئ لكتاب السلمي في الجهاد يدرك مباشرة عمق المعاناة التي كان يعانيها السلمي، وهو الفقيه الذي يرى بيت المقدس تنتهك حرمته، وتداس قدسيته؛ ولذلك أول ما حث عليه هو تخليص بيت المقدس من أيدي أولئك الغزاة [2]. فاجتهدوا - رحمكم الله - في هذا الجهاد لعلكم تكونوا الظافرين بمزية هذا الفتح العظيم [3]، ويعتبر السلمي أول من أدرك ضرورة الوحدة الجهادية بين بلاد الشام والعراق، ومدن آسيا الصغرى، قبل عصر الوحدة الإسلامية ضد الصليبيين بقيادة آل زنكي والأيوبيين [4]، ويعتبر في هذا المجال من الرّواد؛ ودعا السلمي المسلمين إلى تطهير النفوس وإصلاحها، فهي الأساس لوجود وحدة إسلامية لعقد العزم والإصرار على مجاهدة ذلك الغزو: وقدموا جهاد أنفسكم على جهاد أعدائكم فإن النفوس أعدى لكم منهم، واردعوها عما هي عليه من عصيان خالقها سبحانه تظفرون بما تؤملونه من النصرة عليهم [5].

إن الغزو الصليبي لبلاد الشام من وجهة نظر السلمي لم يأت من فراغ وإنما أدرك ضعف المسلمين لعدم تمسكهم بدين الله الحنيف ولذلك اجتهد في نصحهم بالعودة إلى الله وتطهير النفوس؛ بالرجوع إلى كتاب الله، والإقلال عما تقدم منهم، والنهوض إلى قرع باب الجهاد: وليكن قصدكم بجهادكم هذا إرضاء ربكم، والذب عن أنفسكم، وعن غيركم من إخوانكم ليمحص لكم ثواب غزوكم [6] ولا يكون ذلك أمام تقدم الغزو الصليبي، وأخذه لمدن عديدة إلا المبادرة إليهم، والمرابطة على المدن التي لم تحصل في أيديهم [7]، فإن النفير إليهم وقصدهم في البلاد التي قد تملكوها علينا إنما هو حرب يقصد بها الدفاع عن النفوس، والأولاد والأهل والأموال والحراسة لما بقي في أيدينا من البلاد[8]، وكانت دعوة السلمي للمسلمين عامة لوحدة القوى الإسلامية: شامها وجزريها ومضريها. ونصحهم باتباع منهاجه في تطهير النفوس وإصلاحها، فهي الأساس في وحدة إسلامية لعقد العزم والإصرار على مجاهدة ذلك الغزو: وقدموا جهاد أنفسكم على جهاد أعدائكم فإن النفوس أعدى لكم منهم، واردعوها عما هي عليه من عصيان خالقها سبحانه تظفرون بما تؤلمونه من النصرة عليهم [9]، حيث رأى: إن لم يتناس الحكام المسلمون أحقادهم وخلافاتهم فإنهم ما زالوا على جاهلية غير مقتدين بالمثل النابع من التراث عند الشدائد تذهب الأحقاد [10]، واستمر السلمي في مواضع عديدة من كتاب الجهاد يحث ويحرض ويعظ وينبه، ويعلم الحكام عامة على ضرورة الجهاد بخطبه

(1) المصدر نفسه ص 96.
(2) المصدر نفسه ص 97.
(3) المصدر نفسه ص 97.
(4) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 97.
(5) المصدر نفسه ص 98.
(6) المصدر نفسه ص 98.
(7) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 98.
(8) المصدر نفسه ص 98.
(9) المصدر نفسه ص 98.
(10) المصدر نفسه ص 98.

ودروسه التي ألقاها في الجامع الأموي بدمشق، وفي مدن بلاد الشام وفلسطين في اثنين وثلاثين بابا [1]، ولم يترك شاردة ولا واردة في الجهاد إلا وتطرق إليها [2].

ونلاحظ أن السلمي في كتابه الجهاد تطرق إلى توضيح التجزئة والتشرذم في المشرق الإسلامي، وخاصة في بلاد الشام من ضعف القوى الإسلامية، وتفككها مع ضعف الإيمان بفرض الجهاد، وهي نقطة استغلها الغزاة، ولكنه عالج ذلك الخلل بطرحه قضية تطهير النفوس، والعودة إلى التمسك بدين الله الحنيف؛ وإصلاح الأمر فيما بينهم، والإقدام على الجهاد لمواجهة ذلك الغزو، وأنه لا يتم ذلك إلا بوحدة القوى الإسلامية؛ لذا جاء كتابه الجهاد عاماً، لم يخصصه لسلطة سياسية معينة أو لفئة من المسلمين من بلاد الشام مثلاً وفق رؤية إسلامية مبنية على إسناد متين تمثل في القرآن الكريم، والسنة النبوية، وكتب السير والمغازي، والتفاسير وربط موضوعاتها بالخطر الصليبي على بلاد الشام، وهذا دليل على مدى اطلاعه وفكره الثاقب في جمع المعلومات وتسخيرها في مكانها المناسب[3].

ونلاحظ من خلال البحث بأن الدعوة الأولى للجهاد لم تصدر عن مجالس الحكام بل صدرت من محافل الفقهاء والعلماء المسلمين من أساتذة وعلماء وفقهاء وكتّاب، ويعتبر السلمي من أوائل من حث على الجهاد ومن ضمن تيار الرفض العام الإسلامي المدعوم من قِبل الفقهاء والقضاة [4] لقد كتب السلمي كتابه في فترة مبكرة من تلك الحروب وهذا دليل على ذكائه وفطنته في إدراكه لمشاكل بلاد الشام المعقدة، ولكن إن لم تتوفر الظروف العامة لإنجاح دعوته للجهاد في تلك الفترة المبكرة ذاتها، فهو قد ساهم في كتابه للتمهيد لمرحلة الزنكيين والأيوبيين. ولقد قام الأستاذ رمضان حسن الشاوش بدراسة وتحقيق، كتاب الجهاد للسلمي وقدمه كرسالة ماجستير لجامعة الفاتح بطرابلس الغرب عام 1992[5]م.

5 - المشاركة الفعلية للفقهاء والقضاة في ساحات الجهاد: إن من أبرز الأمثلة على مشاركة أولئك الفقهاء للعساكر النظامية في ساحات القتال للتعبير عن حالة الإيمان المثالية بالجهاد، والدفاع عن الأرض والنفس كانت حالة القاضي أبو محمد عبد الله بن منصور المعروف بابن صليحة قاضي حصن جبلة، الذي تولى إمارة وقضاء ذلك الحصن بعد وفاة أبيه منصور عام 494هـ/1100م وكان ذا خبرة عسكرية جيدة لأنه أحب الجندية واختار الجند فظهرت شهامته [6]، وقد برزت مواهب ذلك الأمير القاضي عند محاصرة الإفرنج حصن جبلة للاستيلاء عليه عام (494هـ/1100م) واستخدامه لما يسمى اليوم بالحرب النفسية أولاً؛ وذلك عندما خطط بدهاء، لنشر

(1) المصدر نفسه ص 98.
(2) المصدر نفسه ص 98.
(3) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 99.
(4) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 99.
(5) المصدر نفسه ص 93.
(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن موقف فقهاء الشام ص 120.

الذعر بين صفوف قوات الفرنج، حيث أظهر أن السلطان بركيارق قد توجه إلى الشام لمساعدته[1]، مما أثار الفرنج، والقلق بين عسكر الفرنجة، ورحيلهم فيما بعد. وعندما أدرك الفرنجة حقيقة تلك الخدعة، عادوا فحاصروا المدينة مرة أخرى، ولكن كرر ذلك القاضي تلك الحيلة بصورة أخرى.

ونشر بين صفوف الصليبيين: أن المصريين قد توجهوا لحربهم ومساعدته هذه المرة، ولذلك تركوا محاصرة ذلك الحصن، ويبدو أن الفرنجة لم يكن لديهم المعلومات الكافية عن حالة الحصن، ولا عن عدد قوات ذلك القاضي وإلا لما تركوا محاصرة ذلك الحصن في المرتين السابقتين، ولكن سرعان ما فطن الإفرنجة لتلك الحرب النفسية وأهدافها، فعادوا لمحاصرة الحصن للمرة الثالثة في شهر شعبان عام 494هـ، إلا أن ذلك القاضي أدرك أن الفرنجة قد عرفوا أساليبه القديمة ولذلك لجأ إلى أسلوب جديد لمواجهة أولئك الفرنجة بأن: قرر مع النصارى الذين بها في الحصن، واتفق معهم على إرسال وفد منهم إلى الفرنجة للتفاهم حول تسليم الحصن وإرسال مجموعة من فرسانهم لاستلام الحصن، وأن: يبعثوا ثلاثمائة رجل من أعيانهم وشجعانهم، فوافق الفرنجة على ذلك ويبدو أن القاضي ابن صليحة قد نصب الكمين لهم [2]: فلم يزالوا يرقون في الحبال واحد بعد واحد وكلما صار عند ابن صليحة، وهو على السور رجل منهم قتله إلى أن قتلهم أجمعين، فلما أصبحوا رمى الرؤوس إليهم [3]، ورغم ذلك لم يسترح الصليبيون للطعم والفخ الذي نصبه لهم قاضي جبلة، وتحقيق ذلك النجاح. ولذا قرروا أخذها منه بأية وسيلة، ونصبوا على البلد برج خشب، وهدموا أبراجاً من أبراجه. ولكن ما يملكه ذلك القاضي من الدهاء والحيلة جعله يفطن لذلك الخطر المحدق به، حيث لم يركن للهدوء والاستسلام، وإنما بادر إلى وضع خطة ذكية على غرار تلك الخطط الناجحة التي كبدت ذلك الغزو الخسائر والفشل أكثر من مرة. ولذلك عمل هذه المرة على استدراج الصليبيين في كمين آخر وضعه لهم بخطة محكمة حيث أحدث ثقوباً في أسوار المدينة. ويبدو أنه كان السور الخلفي، وذلك لتسهيل مهمة خروج مجموعة من جيشه ونقب في السور نقباً [4]، وعندما خرج القاضي ابن صليحة وجيشه من الأبواب لقتالهم تظاهر بالهزيمة أمامهم. بحيث انطوت الحيلة على أولئك الغزاة الذين لم يفطنوا لها، وبادروا إلى مطاردته حتى أبواب المدينة في الوقت الذي استغل فيه جنده الفرصة في الخروج من تلك الثقوب، والتفوا من حوله، فأتوا الفرنج من ظهورهم فولوا منهزمين[5].

إن القاضي ابن صليحة لابد له وأن اطلع على فنون الحرب، وبعض الأساليب العسكرية الإسلامية، فأسلوب الحرب النفسية ليست جديدة على التراث العسكري الإسلامي في الفترة الصليبية، إذ استخدم الرسول الكريم ρ ذلك الأسلوب في غزوة الخندق من العام الخامس للهجرة عند ما حفر الخندق وهزم جيوش الأحزاب، وكذلك معركة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة عندما حول

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 120.
(2) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص 120.
(3) المصدر نفسه ص 121.
(4) المصدر نفسه ص 121.
(5) الكامل في التاريخ (425/8).

القائد خالد بن الوليد المعركة من الهزيمة إلى النصر على الروم وذلك باستخدامه الحرب النفسية عن طريق تكثيف الغبار بفرسانه حتى ظن أولئك الروم بوصول الإمدادات إلى المسلمين فولوا منهزمين، وانسحب الجيش الإسلامي من أرض المعركة دون أية خسائر أخرى، وقد طبق تلك الحرب النفسية في العديد من المعارك الأخرى، والتي من بينها معركة اليرموك عام 13هـ عندما عمل على تقسيم قواته، بحيث جعل الميمنة ميسرة والخلف إلى الأمام وبهذا الأسلوب العسكري التكتيكي أرهب جيوش الروم الكبيرة العدد وأوقع بهم الهزائم [1].

6 - تحريض الفقهاء والقضاة على القتال في ساحات المعارك: تبرز شخصية القاضي أبو الفضل الخشاب قاضي حلب المعروف في هذا المجال، فعندما اشتد الحصار الصليبي على حلب عام 513هـ/1119م) أقبل القاضي ابن الخشاب يحرض الناس على القتال وهو راكب على حجر وبيده رمح حيث ألقى فيهم خطبة بليغة، استنهض بها همهم وألهب مشاعرهم، فأبكى الناس وعظم في أعينهم، حتى أقدموا على قتال الغزاة [2]، ورغم تمكن الحلبيين من تخليص مدينتهم في ذلك العام لم يتردد الصليبيون من محاولة أخرى لأخذ حلب عام 518هـ/1124م وذلك عندما قاموا بتخريب كل القرى المجاورة لحلب، حتى لا يقدموا المساعدة لمدينة حلب ونزل الفرنج حران ثم حلب من ناحية مشهد الجف من الشمال، وكان للقاضي ابن الخشاب دور في التحريض على قتال ذلك الغزو، بل كان له دور في تحريض الأمير أقسنقر البرسقي أمير الموصل وسيأتي في بيان ذلك بإذن الله عند الحديث عن دور أمراء السلاجقة في الموصل ودمشق وغيرها في ضد هجمات الصليبيين.

ثانياً: الشعراء ودورهم في حركة المقاومة:

قام بعض الشعراء بدور كبير في تحريض المسلمين ووصف أحوال الأمة وطبيعة الغزو الصليبي الذي احتل البلاد، وهتك الأعراض ومن أشهر هؤلاء ما قاله القاضي الهروي وقيل لأبي المظفر الأبيوردي القصيدة التي أولها:

مزجنا دماءً بالدموع السواجم ::: فلم يبق منا عرضه للمراجم [3]
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ::: إذا الحرب شبَّت نارها بالصوارم [4]

إنه - في هذا المطلع - يصرّح ببكاء الناس بكاءً أنزل الدم من العيون لشدته واستمراره، وأنهم بكوا حتى لم يبق فيهم مجال للذم، ولكنه ولا يلبث أن يفطن إلى أن البكاء على شدته، لن يغني في شيء في معركة لا يسعّر نيرانها إلا السيوف القواطع ومنها

فأيها بني الإسلام إن وراءكم ::: وقائع يلحقن الذرا بالمناسم
أتهويمة في ظلّ أمن وغبطة ::: وعيشٍ كنّوار الخميلة ناعم [5]
وكيف تنام العين ملء جفونها ::: على هفوات أيقظت كلّ نائم

---

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص 122.
(2) المصدر نفسه ص 129.
(3) المراجم: جمع مرجم وهو القبيح من الكلام.
(4) شُبَّت: سُعّرت اشتدت.
(5) الهوم: النوم الخفيف. نوار: زهر. الخميلة: الشجر الملتف.

وإخـــوانكم بالشـــام يُضـــحي مقـــيلهُم ::: ظهـــور المـــذاكي أوبطـــون القشـــاعم [1]
تســـومهم الـــروم الهـــوان، وأنـــتم ::: تجـرون ذيـل الخفـض، فعـل المسـالم [2]

وهنا يستصرخ الشاعر المتخلفين عن القتال مع أخوانهم المسلمين في بلاد الشام، فيبدأ هذه المقطوعة بتوجيه نداء حار للمسلمين: إيهاً بني الإسلام أنِ اصحوا من نومكم فما دهاكم من الغزو يجعل أعزتكم أذلة. ثم يعجب لهم ولنومهم، إذ كيف ينامون ملء عيونهم ويعيشون عيشاً ناعماً آمناً وغير بعيد منهم تجري فظائع الأمور التي تقع على رؤوس أخوانهم من أهل الشام، فلا يجدون وقتاً قصيراً ينامون فيه في بيوتهم، فجلّ أوقاتهم على صهوات خيولهم يحاربون أو تكتب لهم الشهادة فتتخطفهم نسور الجو ولا من يدفن جثثهم، وربما يقعون تحت إذلال أعدائهم من الفرنجة، أما أنتم فيبدو عليكم التقلب في ثبات النعمة كما أنكم مسلمون أو متحالفون مع الأعداء ومنها:

وكـم مـن دمـاء قـد أبيحـت ومـن دمـى ::: تـــواري حيـــاءً حســـنها بالمعاصـــم [3]
بحيـث السـيوف البـيض محمـرة الظبـا ::: وسـمُر العـوالي داميـاتُ اللَّهـاذِم [4]
وبـين اخـتلاس الطعـن والضـرب وقفـة ::: تظـل لهـا الولـدان شـيب القـوادم
وتلـك حـروب مـن يغـب عـن غمارهـا ::: ليســلم يقــرع بعــدها ســنَّ نــادم
سَـــللن بأيـــدي المشـــركين قواصـــناً ::: ستُغْمد منهم في الطُلا والجماجم [5]
يكـــاد لهـــن المســـتجنّ بطيبـــة ::: ينـادي، بـأعلى الصـوت، يـا آل هاشـم

وفي هذه الأبيات يصور شراسة المعارك التي وقعت بين المسلمين وأعدائهم من الفرنجة، فقد أُبيحت فيها دماء كثيرة من المسلمين ولقد اقتحم فيها على النساء خدورهن وما وجدن ما يدفعن به عن أجسامهن المصونة غير معاصمهن المشتبكة حياءً وخوفاً، وقد اشتدت هذه الحروب واستحّر فيها القتل حتى بدت أسنَّة السيوف والرماح حمراء لاهبة، وحتى أن الصبيان ربما يظهر في شعرهم الشيب لما فيها من هول الطعن والضرب ثم يعود لتنبيه المتخلفين بأنهم سوف يندمون على تخلفهم عن الاشتراك في هذه الحروب، التي يعود ليتحدث عن أخطارها فيهوّن من شأن الأعداء وأسلحتهم فما استلّوه من سيوف قاطعة تعود إلى نحورهم وجماجمهم. وفي آخر الأبيات يؤكد فظاعة هذه الحروب بأن الرسول ρ، في ضريحه الطاهر في المدينة المنورة يستنجد على الأعداء، بالعرب والمسلمين وليس بآل هاشم فحسب[6].

ارى امتـــي لا يشـــرعون إلـــى العـــدا ::: رمـــاحهم، والـــدين واهـــي الـــدعائم
ويجتنبـــون النـــار خوفـــاً مـــن الـــردى ::: ولا يحســـبون العـــار ضـــربة لازم
أترضـــى صـــناديد الأعاريـــب بـــالأذى ::: ويغضـــي علـــى ذلّ كمـــاة الأعـــاجم [7]؟
فليـــتهم إذ لـــم يـــذودوا حميـــة ::: عـــن الـــدين، ضـــنّوا غيـــره بالمحـــارم
وإن زهـدوا فـي الأجـر، إذ حمـي الـوغى ::: فهـلاّ أتـوه رغبـة فـي الغنـائم؟

ويرى الشاعر قعود بعض بني قومه عن الجهاد فيتأم لذلك ألماً يصور معه واقعهم المتخاذل عن

(1) المذاكي: مذكيه وهي الفرس: قشاعم: جمع وهو قشعم وهو النسر المسن.
(2) الخفض: الغنى.
(3) نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية عمر الساريسي ص 26.
(4) نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية عمر الساريسي ص 26.
(5) المصدر نفسه ص 26.
(6) نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية عمر الساريسي ص 26.
(7) المصدر نفسه ص 26 العنديد: المقاتل الشديد والكماة: جمع كمي، وهو لابس السلاح.

نصرة دينهم الذي يحاول الأعداء إضعافه، جبناً وخوفاً وغفلة عما يلحق بهم من العار في حالة الهزيمة، ويعجب لشجعان المسلمين، من عرب ومن عجم، كيف يقبلون بهذا كله ثم يقلب لهم أسباب الدفاع عن الدين وعن البيضة تقليباً منطقياً، فيه الألم الذي يعصر قلبه، والتبكيت الذي يهز أحاسيسهم من الأعماق، فيطالبهم بالدفاع عن الدين أولاً فإن لم ينهضوا له فليحموا محارمهم من النساء والبلدان والعقار، وهذا أضعف الإيمان، أن يهتموا بالدنيا وعَرَضَها من غنائم وأسلاب إن فقدوا الثأر للدين والخروج ونيل الشهادة!! وفي نهاية القصيدة يبلغ به الألم مبلغاً أشد فعلاً وتأثيراً، فيكشف لهم عن مستقبل أيامهم وما يلاقون فيه من إذلال وصغار في أيام أبنائهم الوارثين للخنوع إن قبلوا باحتلال الأعداء لبلادهم، ثم يهددهم بعار تسليم النساء للأعداء إن هم ظلوا على ما هم عليه من الخنوع والجبن والقعود عن الجهاد ولم يزل الشاعر يستصرخهم والحرب مستعرة، ليغيروا على المعتدين غارة شعواء تلقي الفرنجة درساً قاسياً، كما تعوّدوا في كل مرة يهاجمون فيها بلاد الإسلام:

لئن أذعنت تلك الخياشيم للبُرَى ::: فلا عطست إلا بأجدع رغم (1)
دعونا كم والحرب تدعو ملحة ::: إلينا بألحاظ النسور القشاعم (2)
تراقب فينا غارة عربية ::: تطيل عليها الروم غَضَّ الأباهم (3)
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه ::: رمينا إلى أعدائنا بالجرائم (4)

وقال شاعر آخر في الغزو الصليبي لبيت المقدس:

أحلّ الكفر بالإسلام ضيماً ::: يطول عليه للدين النحيب
فحقٌّ ضائع وحمًى مباح ::: وسيف قاطع ودم صبيب (5)
وكم من مسلم أمسى سليباً ::: ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديراً ::: على محرابه نُصبَ الصليب
دم الخنزير فيه لهم خَلوقٌ ::: وتحريف المصاحف فيه طيب (6)
أمور لو تأملهن طفل ::: لطفّل في عوارضه المشيب (7)
أتسبى المسلماتُ بكل ثغر؟ ::: وعيش المسلمين إذن يطيب
أما لله والإسلام حق؟ ::: يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا ::: أجيبوا الله، ويحكم، أجيبوا(8)

ويبدو للمتأمل في هذه الأشعار أنها تسجل مشاعر الإنسان المسلم في مرحلة غزو الأفرنج وظفرهم من مراحل الحروب الصليبية وأبرز هذه المشاعر:

الشعور الديني: فالأبيوردي يستصرخ بني الإسلام " فإيهاً بني الإسلام " لأن الأعداء مشركون " سللن بأيدي المشركين " سللن بأيدي المشركين " فهو بعد نداء المسلمين عامة يؤمل ألا يقبل بهذا الغزو لا صناديد الأعاريب ولا كماة الأعاجم، كما أنه يرى أن الرسول - عليه السلام -

(1) الخيشوم: أقصى الأنف، البُري: جمع بُرة وهي حلقة من صفر أو غيره.
(2) في أحد جانبي أنف البعير للتذليل أو في أنف المرأة للزينة.
(3) القشعم: النسر المسن.
(4) الكامل في التاريخ (407/8).
(5) صبيب: أي سائل.
(6) الخلوق والخلاق: ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران.
(7) أي برز وظهر والعارضان: جانبا الوجه.
(8) البصائر جميع بصيرة: وهي قوة الإدراك والفطنة النجوم الزاهرة (151/5).

يستفظع هذا الغزو ويدعو قومه لدرئه؛ وفي الوقت الذي يدعوهم للصمود والثبات في وجه الغزاة يقلب لهم أسباب هذا الصمود وعوامله فيطالبهم بأن يتذكروا أولاً، ثواب الله في الآخرة عليه، فإن تناسوا هذه، فيطالبهم، بأن لم أن يذبوا عن محارمهم على الأقل وربما كان هذا الشعور الديني في القصيدة البائية أكثر بروزاً ووضوحاً من سابقتها، فمنذ الكلمة الأولى يطلعنا الشاعر على أن الصنيم قد حل أولاً بالإسلام، ثم أخذ يعدد ألوان هذا الصنيم المتعددة مهتماً بما حدث للمساجد من تحويل إلى أديرة، وبما ارتفع على محاريبها من صلبان، ومما أخذ يفوح فيها من رائحة لحم الخنزير أو المصاحف المحروقة، وإنه ليربط ربطاً محكماً بين ما يكاد يقشعر له شعر رأسه من سبي النساء وبين العيش الهنيء للمسلمين المتخلفين عن الجهاد، ويتجمع الحسّ الإسلامي عند هذا الشاعر المؤمن المجاهد، فيصرخ في وجه القعدة المتخاذلين صرخة تهز أعماقهم أما لله والإسلام حق؟؟ إن هذا هو الأساس الثابت وراء هذا الأدب الإسلامي الملتزم بقضايا الأمة وهمومها؛ إن كل الحروب بما فيها رد للغزو أو نفير للجهاد: " أجيبوا الله ويحكم أجيبوا "، والويل والثبور لمن يتخلف عن تلبية نداء هذا الداعي. أما مكانة القدس في قلوب المسلمين في ذلك العهد وفي كل عهد فهي مما يكمل هذا الشعور ويؤكد عليه؛ فبعد الانتصار على حاكم مملكة أنطاكية النصراني، وبعد فتح مصر ثم توحيدها مع الشام تحت القبضة الإسلامية، وبعد فتح حلب، بعد هذا كله لم يكن النداء التالي إلا الشروع في العمل لتخليص القدس والمسجد الأقصى من أسر المشركين وتطهيره من مظاهر الشرك والدنس[1].

الشعور الاجتماعي: ويتبع الإحساس بما حاق بالدين إحساس بالهوان الذي ألم بالمسلمين أنفسهم " تسومهم الروم الهوان " وهم إما على صهوات الخيل، وإما في بطون طيور الجو، وكم من دماء قد أبيحت، فحقٌّ ضائع وحمى مباح " وكم من مسلم أمسى سليباً " إن شعور بالضياع والهزيمة أمام هذه الزحوف الغازية في حالة تقاعس بعض المسلمين عن شد أزر بعض في ساعات العسرة.

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا ::: رماحهم والدين واهي الدعائم

ومما يثقل كاهل الإنسان المسلم، الذي يعيش هذه الآلام، ما يحيق بنساء المسلمين في المجتمع الإسلامي، من سبي وقهر واغتصاب فما عسى النساء الجميلات أن يدفعن عن أنفسهن إذى دُخلت عليهنَّ خدورهن من أقطارها؟ وما عسى المعاصم النسائية التي تشابكت لتواري النفس من الخجل ولئلا تقع عيون علوج الأعداء المهاجمين في عيونهم ما عساها أن تدفع عنهن من الشرور المقتحمة؟ وغاية ما يهدد به هذا الشاعر المتألم بني قومه أن يخلي بين النساء وسائر المحرمات وبين الأعداء إذا هم ظلوا متخاذلين عن المشاركة في الجهاد لدفع عدوان أعداء الله [2].

ومما يدلل على عمق تأثير هذا الشعور في النفس المسلمة أن شاعر القصيدة البائية عدد أصناف الشقاء التي حاقت بالمسلمين، إثر الغزو الصليبي، بألم، حتى إذا ما وصل إلى صورة سبي النساء المسلمات صرخ بأعلى صوته، ومن أعماق إحساسه، بسؤال يهز أعماق السامعين أتسبي

(1) نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية ص 32.

(2) نصوص من أدب عصر الحروب الصّليبية ص 33.

المسلمات بكل ثغر؟؟ وذلك مقابل مالا يليق لدى الطرف الثاني من اهتمام المسلمين " وعيش المسلمين إذن يطيب؟ " ويتبع هذه الأسئلة سؤال آخر يضرب في أعماق هذه المشاعر كلها، وهو ما ذكرنا من شعور ديني متألم " أما لله والإسلام حق ". فالله، سبحانه، لا يرضى أن تسبي المسلمات وهو القائل:{**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**} [سورة الحج: 39]. وهو القائل{**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**} [المنافقون: 8]. هل في هذا الإلحاح على الألم الشديد مما حاق بنساء المسلمين إثر هذه الحروب، بقايا من الإحساس القبلي بعار العشيرة، إذا أضيمت نساؤها؟ لو سلمنا بوجوده فإننا نلمح في الوقت نفسه، أن الإسلام طالب بالدفاع عن الحمى والمحرمات، والنساء أولى هذه المحميات في الإسلام [1].

الشعور النفسي: وإذا كان الشعور الاجتماعي يتسع أفقه لحمل هموم المجتمع الإسلامي بجميع أفراده بأن الفرد المسلم، على النطاق الفردي، قد أخذ يحسُّ بمجموعة من الأحاسيس الطاحنة تحت وطأة هذا الغزو الغاشم من جهة، وتخلف الكثيرين من أبناء الإسلام من جهة أخرى وأولى مشاعر الفرد في هذه الجو، هو الحزن الشديد الذي لف نفوس جميع الأفراد لفاً، فأول ما نطقت به كلمات الأبيوردي هو البكاء الذي لم يذرف الدموع، فحَسب ولكنه استنزال الدم من العيون بعد أن جفت الدموع!! وسرعان ما يزداد هذا الحزن حينما يفتح الشاعر عينيه على الحقيقة المرة: ما نفع الدموع في معركة لا تتكلم فيها إلا السيوف المواضي؟ وهنا تحدق الشرور بنفسية هذا الشاعر، ومن هذا الإحساس العاصف ينبت استنجاد الشاعر بأهله من المسلمين، للنهوض والرد على هذا الخطر المحدق "فإيها بني الإسلام " وما نفع الفرد، حينما تحيط به الأخطار، إن لم يكن له أهل يمنعونه؟ ونخرج بمثل هذا الحزن العاصف حينما نقرأ القصيدة البائية ونحس بخفقان له أهل يمنعونه؟ ونخرج بمثل هذا الحزن العاصف حينما نقرأ القصيدة البائية ونحس بخفقان قلب صاحبها المضطرب، لكثرة ما رأى وأحس وعاش من الأخطار التي تهددت وجوده ووجود أهله فحقوقهم ضائعة ودماؤهم سائلة، ورجالهم كنسائهم في السبى والنهب، وبلادهم مباحة، ومساجدهم غدت أديرة، وجدران صلبان، وحينما يبلغ الحزن مبلغ هز الأعماق تخرج الصرخات والاستنجاد والتذكر بحقوق الله في الجهاد والذب عن الحياض ونكاد نلمح مثل هذه المشاعر الفردية الحزينة حينما يأخذ الشعراء في تزيين فتح القدس للقادة الفاتحين بمختلف ضروب الإقناع، فقد كان هذا الأمل يداعب نفوس المسلمين، جميع المسلمين، منْذ أن فتحوا عيونهم على قبلتهم الأولى فوجدوها في أيدي أعداء الله.

تصوير الحروب: وتكاد قصيدة الأبيوردي تنفرد بتصوير ما وقع بين المسلمين وبين أعدئهم المهاجمين من حروب، قبل استيلاء الصليبيين على مقدساتهم، وهذه مأثرة إيجابية تحسب لها، فالقدس لم يستول عليها الأعداء دون قتال، وإلا لكان هذا دليلاً على الضعف والخور، فهذه الحروب تسعّرها السيوف القاطعة، وحينما كان الهجوم صمد لهم أبناء الشام الأبطال حتى يظل الواحد منهم

(1) نصوص من أدب عصر الحروب الصّليبية ص 33

على صهوة جواده ليل نهار حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه فتتخطفهم سباع الأرض أو نسور الجو، كما قال أحد خطباء العصر الأموي، كما أن النساء اللواتي اقتحمت عليهن خدورهن دافعن بعد أن استحر القتال بين رجالهن وبين الأعداء:

بحيث السيوف محمرة الظبا ::: وسمر العوالي داميات اللهادم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ::: تظل لها الولدان شيب القوادم

إنها صدمات تصير لها الولدان شيباً، كما ورد في القرآن الكريم عن أهوال يوم القيامة؛ إنها حروب يستل فيها المشركون سيوفاً قاطعة لكن المدافعين عن حرمات الإسلام يردون هذه السيوف المعتدية إلى نحو أصحابها ورؤوسهم، أجل إن المقاومة الإسلامية قد هبت في وجوه المعتدين مُنذ أن وطئت أقدامهم النجسة أراضي المسلمين في سواحل بلاد الشام الشمالية، وظلت راية الجهاد مرفوعة لرد المعتدين، حتى خرج آخر صليبي معتدٍ من هذه الديار الإسلامية، بعد قرنين من الصراع المستمر[1].

الدعوات إلى الجهاد: إن أحزان الشعراء والأفراد وشعورهم بالضياع أمام ما رأت أعينهم من مصير الدين الذي صار - بهذا الغزو الصليبي - واهي الدعائم، ومن فظائع شتت شمل أهلهم المسلمين وسبت نساءهم وأذلت رجالهم، بعد القتال الشديد، وحولت مساجدهم إلى كنائس إن هذا الحزن الجارف لم يقعد بهؤلاء الشعراء عند مرحلة البكاء وذرف الدموع وتصوير ما حاق بالناس من مصائب، إنه حملهم على أن يسلكوا السبيل الأصوب في مثل هذه المواقف، فقد أصبح الشاعر نذيراً لأمته بالشرور التي ستطبق عليهم في الدنيا وبغضب الله في الآخرة إذا هم ظلّوا متقاعدين عن الجهاد لدرء الأخطار، فلقد قال الشاعر لأهله: إن الدموع لا تغني في حروب السيوف، فدعاهم للتجمع والرد فوراءهم ما يذل الأغزة. ويبكتُهم على تقاعدهم ليهبوا للجهاد:

أتهويمة في ظل أمن وغبطة ::: وعيش كنّوار الخميلة ناعم

وقابل لهم بين الصورتين غير المتوازنتين. قتال فريق من المسلمين وتقاعد الفريق الآخر، وما أفعل قوله وأشد تأثيره: أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا... إلخ البيت.

فقوله أمتي فيها الإيجاز والتأثير ومنطقة النداء والدعوة ومرة يمدحهم بالشجاعة والنخوة ويذكرهم بهما ليهبوا للجهاد، ومرة يناقشهم في أسباب الدفاع والصمود، أما حينما يخامره الشك في أن يستمعوا إلى نداءاته هذه كلها يلجأ للتأثير عليهم من جهة أخرى هي جهة التذكير بالنساء والأعراض واحتمال وقوعها تحت أيدي الأعداء المهاجمين وكذلك يفعل الشاعر المجهول، فبعد أن يصور لهم ما حاق بأهاليهم من شقاء وهوان يدعوهم - بصريح العبارة - إلى تلبية نداء الله بالجهاد والثأر للكرامة الإسلامية، ديناً ومتدينين وبلاداً ومسلمين [2].

الشاعر ابن الخياط: أبو عبد الله أحمد بن محمد ابن الخياط: فقد حاول هذا الشاعر تحريك همة عضب الدولة زعيم الجيوش في دمشق فقال قصيدة طويلة يحثه على إعداد العدة للجهاد مطلعها

(1) نصوص في أدب عصر الحروب الصليبية ص 35.
(2) نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية ص 36.

قولـه:

فـــدتك الصّـــواهل قبّـــا وجـــرداً ::: وشُـــمُّ القبائـــل شـــيباً ومـــرداً
وذلـــت لا ســـيافِك البـــيض قضـــباً ::: ودانـــت لأرماحـــك السُّـــمر مُلْـــدا (1)

إلى أن يقول:

وإنـــي لمهـــد إليـــك القـــريض ::: يُطـــوى علـــى النصـــح والنصّـــح يُهـــدَى
إلـــى كـــم وقـــد زخـــر المشـــركون ::: بســـيل يُهـــال لـــه الســـيل ســـداً و
وقـــد جَـــاشَ مـــن أرض إفرنجـــة ::: جيـــوش كمثـــل جبـــال تـــردا
أنومـــاً علـــى مثـــل هـــدّ الصـــفاة ::: وهـــزلا وقـــد أصـــبح الأمـــر جِـــدّا
وكيـــف تنـــامون عـــن أعـــين ::: وتـــرتم فأســـهرتموهنّ حقـــداً
بنـــو الشـــرك لا يُنكـــرون الفســـاد ::: ولا يعرفـــون مـــع الجـــور قصـــداً
ولا يردعـــون عـــن القتـــل نفســـاً ::: ولا يتركـــون مـــن الفتـــك وجُهـــداً
فكـــم مـــن فتـــاة بهـــم أصـــبحت ::: تـــدق مـــن الخـــوف نحـــراً وخـــداً
وأمّ عواتـــق مـــا إن عـــرفن ::: حـــرا ولا ذُقـــن فـــي الليـــل بـــرداً
تكـــاد علـــيهنّ مـــن خيفـــة ::: تـــذوب وتتلـــف حزنـــاً ووجـــدا

وبعد أن وصف الشاعر حال المشركين وقسوتهم، وحال المسلمين معهم بدأ يحرض عضب الدولة على الجهاد فقال:

فحـــاموا عـــن ديـــنكم والحـــريم ::: محامـــاة مـــن لا يـــرى المـــوت فقـــدا
وسُـــدُّوا الثغـــور بطعـــن النحـــور ::: فمـــن حـــق ثغـــر بكـــم أن يُسَـــدَّا
فقـــد أينعـــت أرؤس المشـــركين ::: فـــلا تغفلوهـــا قِطافـــاً وحصـــداً
فلابـــد مـــن حـــدّهم أن يُفـــلّ ::: ولابـــد مـــن ركـــنهم أن يُهَـــدّا (2)

وكانت لجهود العلماء والفقهاء والقضاة والأدباء والشعراء أثر في تقوية حركة المقاومة المسلحة والتي قادها أمراء السلاجقة والتي سيأتي الحديث عنها بإذن الله في الصفحات القادمة.

ثالثاً: قادة الجهاد من السلاجقة قبل عماد الدين زنكي:

من الحقائق المسلم بها في تاريخ الحركة الصليبية، أن حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين انبعث لأول مرة في بلاد المشرق الإسلامي من منطقة الجزيرة وهي تقع بين دجلة والفرات مجاورة لبلاد الشام وتشتمل على ديار مصر وديار بكر، وسميت الجزيرة لوقوعها بين نهري دجلة والفرات، وتمتاز منطقة الجزيرة بأنها صحية الهواء جيدة الريع والنماء، واسعة الخيرات، بها مدن جليلة وحصون منيعة وقلاع كثيرة (3)، ومن الأسباب التي جعلت حركة المقاومة تبعث من منطقة الجزيرة هي:

- إن منطقة الجزيرة أول أقطار المسلمين في المشرق الإسلامي اكتوت بنار الخطر الصليبي عندما استولى الصليبيون على الرها وتأسست بها أولى الإمارات الصليبية سنة 490هـ/1097م، فأدرك السكان خطر توغل الصليبين في بلادهم، مما بعث المسلمين على التفكير الجدي في المبادرة إلى مهاجمة الصليبيين.

---

(1) ديوان ابن الخياط ص 182.

(2) ديوان ابن الخياط ص 182 وما بعدها.

(3) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 135، نور الدين محمود والصليبيون، حسن حبشي ص 11.

- أن منطقة الجزيرة قد ظهرت شخصيتها منذ عصر صدر الإسلام بسبب مجاورتها لأطراف الدولة البيزنطية، مما نشأ عنه خطر شديد على المسلمين أيام الأمويين والعباسيين فأصبحت خط الدفاع الأول عن ثغور المسلمين ضد الروم، وبعد الغزو الصليبي أصبحت منطقة الجزيرة تواجه إمارة الرها الصليبية التي شكلت أكبر خطر على الخلافة العباسية في بغداد.

- شهدت منطقة الجزيرة خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي دخول الأتراك السلاجقة إليها مع ما اشتهروا به من حبهم لتربية الخيول والمغامرة مع حماسهم للإسلام بسبب قرب عهدهم به، وانتمائهم للمذهب السني وأمد السلاجقة التركمان منطقة الجزيرة بدماء جديدة شديدة التحمس إلى الجهاد في سبيل الله، وبعكس القوى الإسلامية الأخرى في بلاد الشرق الإسلامي التي خبث جذوة الحماس الديني في نفوسها وخمدت روح القتال لديها [1].

- الثروات الضخمة والموارد الكبيرة التي حوتها منطقة الجزيرة بسبب توفر مصادر المياه، وخصوبة الأرض؛ وسعة الرقعة الزراعية وكثرة المراعي اللازمة للخيل والماشية، الأمر الذي مكّنها من مد المجاهدين بمصدر لا تنفذ من المؤن والعتاد.

هذا فضلاً عن الحصانة الطبيعية التي تمتعت بها كبرى مدن وقلاع الجزيرة التي انطلقت منها حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين مثل الموصل وآمد وماردين وحصن كيفا وغيرها، إذ أن تلك المدن التي امتازت بحصانة جغرافية فريدة جعلت اقتحامها عنوة أمراً بالغ الصعوبة وبالتالي أصبحت في مأمن من الهجمات الصليبية المضادة، ولا يستبعد أن يكون قد اختمر في نفوس زعماء حركة بعث فكرة الجهاد الإسلامي ما يمثله وجود إمارة الرها الصليبية في منطقة الجزيرة من خطورة بالغة على مركزه بالإضافة إلى خوفهم من تقدم الصليبيين جنوباً للقضاء على الخلافة العباسية في بغداد[2] ومن هنا فلا غرو أن تبعث فكرة الجهاد الإسلامي منطقة الجزيرة بقصد انتزاع الرها من أيدي الصليبيين [3].

1 - جهاد قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل: وقد اتخذت فكرة المقاومة الإسلامية مظهرها العملي منذ سنة 491هـ/1097م حيث قام قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل بجمع ما استطاع جمعه من العساكر بقصد منع أنطاكية من السقوط بيد الصليبيين ولكن كربوقا لم يلبث أن توقف في الطريق حيث حاصر الرها لمدة ثلاثة أسابيع فأعطى بذلك فرصة كبيرة للصليبيين جدوا فيها لفتح أنطاكية، وقد تم لهم ذلك، ولو أن كربوقا أنفذ إلى أنطاكية مباشرة لاسلمه ياغي سيان مدينة أنطاكية، وتغيرت ظروف المحاصرين [4] ولكن كربوقا رفع الحصار عن الرها حين سمع بسقوط أنطاكية بيد الصليبيين، وعبر الفرات إلى الشام وأقام بمرج دابق حيث اجتمع هناك دقاق بن تتش صاحب دمشق وظهير الدين طغتكين أتابك دقاق، وجناح الدولة حسين صاحب حمص، وأرسلان

(1) الإمارات الأرتقية في الشام والجزيرة ص 201.
(2) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 137.
(3) المصدر نفسه ص 138.
(4) المصدر نفسه ص 138.

تاشي صحاب سنجار، وسقمان بن أرتق صاحب بيت المقدس، وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم في القدوة والكفاية على حد قول ابن الأثير [1].

وانضم الأمراء جميعاً تحت قيادة كربوغا وساربهم صوب أنطاكية في سنة 491هـ/1097م التي كانت قلعتها لا تزال في أيدي المسلمين، فاقتربوا منها وشددوا عليها الحصار حتى تغير موقف الصليبيين وساءت حالتهم، إذ وجدوا أنفسهم محاصرين من الداخل والخارج، فتعرضوا لأزمة قاسية بسبب قلة الغذاء مما اضطرهم إلى أكل الجيف وأوراق الشجر[2]، ودفع ذلك الصليبيين إلى إرسال وفد إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من أنطاكية، غير أن كربوقا رفض طلبهم وقال لهم: لا تخرجون إلا بالسيف[3]، وهذا ما دفع أحد رجال الدين المسيحيين واسمه بطرس " بوشلميوا " إلى اختلاق قصة الحربة المقدسة التي أدت إلى رفع معنويات الصليبيين والتفافهم حول زعمائهم، فقويت نفوسهم على الاندفاع تجاه المسلمين والخروج من الباب جماعات متفرقة حتى تكامل خروجهم فزحفوا على المسلمين وهم في غاية من القوة والكثرة فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم [4]، وهكذا فشل كربوقا في قيادة التحالف الإسلامي الذي أراد من ورائه منع سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين سنة 491هـ/1097م وقد ذكر المؤرخون أسباب فشل كربوقا في منع سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين في الوقت الذي كان فيه الصليبيون قد وصلوا إلى درجة من الضعف والتدهور داخل أنطاكية ومن هذه الأسباب:

- ما ذكره مؤرخ أعمال الفرنجة من أن كربوقا صاحب الموصل قد أضاع ثلاثة أسابيع في حصار الرها مما مكن الصليبيين من الاستيلاء على أنطاكية، والاحتياط بما عسى أن يطرأ لهم من هجوم مباغت سواء من المسلمين الذين كانوا داخل قلعة أنطاكية أو من إخوانهم في بلاد الشام وغيرها [5].

- عدم وجود تجانس بين قوات كربوقا التي تكونت من العرب والترك وغيرهم، ثم ما قام به رضوان صاحب دمشق من بث روح الشقاق بين العرب والترك.

- عدم وجود خطة عسكرية واضحة أمام كربوغا، ولعل أبرز ما يوضح ذلك هو عدم رغبة كربوقا في السماح لرجاله بتوجيه الضربة القاضية للصليبيين وهم يخرجون جماعات متفرقة من أنطاكية. وهذا يعود إلى أن كربوقا كان يخشى على ما يبدو من أنه إذا فعل ذلك فسوف لا يقضى إلا على مقدمة الصليبيين [6].

- سوء معاملة كربوقا لمن معه من الأمراء، كانت سبباً من أسباب هزيمته وفشله، فقد شرع

(1) الكامل في في التاريخ (4000/8).
(2) المصدر نفسه (400/8) الجهاد ضد الصليبيين ص 138.
(3) الكامل في التاريخ (400/8).
(4) المصدر نفسه (400/8).
(5) تاريخ الحروب الصليبية (328/2).
(6) المصدر نفسه (350/2).

بنوع من الاستعلاء عليهم: ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذا الحال، مما أدى إلى استيائهم من تصرفاته [1].

- ارتفاع الروح المعنوية عند الصليبيين بعد اختلاق قصة الحربة المقدسة، بالإضافة إلى ما قام به زعماء الصليبيين قبل وصول كربوقا إلى أنطاكية من مراسلة دقاق صاحب دمشق وأخباره أن مطامعهم لا تتعدى الاستيلاء على ما كان بيد الإمبراطور البيزنطي في شمال الشام [2]، لا يمنع هذا من القول بأن محاولة كربوقا منع أنطاكية من السقوط بيد الصليبيين كانت نقطة انطلاق في بعث فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين وكشفت للصليبيين عن مدى قوة المسلمين في حالة اتحادهم، كما أنها رسمت الطريق الصحيح لمن أتى بعده من زعماء المسلمين الذين أخذوا على عواتقهم حمل لواء الجهاد الإسلامي ليكملوا المسيرة من بعده، وتتمثل هذه الحقيقة إذا علمنا أن عماد الدين زنكي قد عاش في كنف كربوقا بعد موت والده[3] على أن كربوقا صاحب الموصل قد وافته المنية عند مدينة خوى بأذربيجان سنة 495هـ/1102م أثناء النزاع بين السلطان بركيارق بن ملكشاه وأخوه محمد بن ملكشاه، فخلت الموصل من أحد الزعماء الذين لم يشغلهم، النزاع القائم بين السلاجقة عن مواصلة العمل على بعث فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين [4].

2 - جهاد جكرمش صاحب الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وديار بكر:

جعلت وفاة أتابك الموصل كربوغا الموقف مائعاً وأدت إلى إثارة الحرب الأهلية ذلك أن كربوغا أوصى بالولاية من بعده إلى سُنقرجه، وهو أحد أمرائه، وأمر الأتراك بطاعته لكن نازعه موسى التركماني نائبه في حصن كيفا، بعد أن استدعاه أعيان الموصل، واستطاع أن يقتل منافسه ويفوز بحكم الموصل بوصفه نائباً عن السلطان بركيارق [5]، واستغل شمس الدولة جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر، فرصة الاضطرابات، ليتدخل في النزاعات الداخلية، فزحف إلى نصيبين واستولى عليها، فهرب موسى إلى الموصل وتحصَّن بها، وهناك حاصره جكرمش مدة طويلة واضطر موسى إلى الاستعانة بسقمان الأرتقي في ديار بكر، فعرض عليه إعطاءه حصن كيفا ومنحه عشرة آلاف دينار، مقابل مساعدته، قَبِل سقمان هذا العرض وقَدم له مساعدة عسكرية فاضطر جكرمش إلى فك الحصار عن الموصل ولما خرج موسى لاستقبال سقمان، قتله بعض غلمانه في الطريق فتشتَّت جيشه، وعاد سقمان مسرعاً إلى حصن كيفا، فاستولى عليه بينما تقدم جَكَرمش إلى الموصل ودخلها وسط ترحيب سكانها [6].

تولى جكرمش إمارة الموصل عام 495هـ - 500هـ/1101 - 1106م وعقد تحالف مع سقمان

(1) الجهاد ضد الصليبين ص 140.
(2) الجهاد ضد الصليبين ص.
(3) دول الإسلام للذهبي (25/2).
(4) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 62.
(5) المصدر نفسه ص 63.
(6) المصدر نفسه ص 63.

بن أرتق أمير الأراتقة في ديار بكر، استهدف التصدي لتقدم الصليبيين شرقاً باتجاه قلب الجزيرة، إذ كان للانتصارات السريعة التي أحرزها الصليبيون، واعتزامهم الاستيلاء على حران الواقعة في مفرق الطرق إلى العراق والجزيرة والشام، مستغلين فرصة الصراع بين الأمراء المسلمين، فضلاً عما يعنيه الاستيلاء على حران من قطع الصلة بين المسلمين في بلاد فارس والعراق والجزيرة والشام، وإعطاء الصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل، وتأمين الرها، والسيطرة على إقليم الجزيرة، كان لهذه العوامل جميعاً الأثر الحاسم في تناسي كل من جكرمش وسقمان خلافاتهما القديمة، والعمل سوياً لإيقاف تقُّدم الصليبيين[1].

أ ـ معركة البليخ وانتصار المسلمين على الصليبيين " وتسمى معركة حران ": أرسل كل من جكرمش وسقمان إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع لتلاقي أمر حران ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه: فأجاب كل منهما صاحبه، واجتمعا على الخابور عند رأس العين، حيث عززا تحالفهما وتوجها على رأس عشرة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد لمنازلة الرها قبل أن يتعرضا للهجوم، وعندما سمع بلدوين الثاني أمير الرها نبأ احتشادهم في رأس العين أرسل إلى جوسلين وبوهمند يستنجد بهما، واقترح عليهما أن يحوّلا وجهة الهجوم بأن يقوما بمحاولة لمنازلة حران، وبعد أن أبقى بلدوين حامية صغيرة في الرها اتخذ طريقه إلى حران على رأس جماعة صغيرة من الفرسان والأرمن، وانحاز إليه بالقرب من حران كل من جوسلين أمير تل باشر وبوهمند أمير أنطاكية، وابن أخته تانكرد، وبطريرك إنطاكية، وجيش ضم فرسان الصليبيين وأمراءهم وعدداً كبيراً من الأرمن ورجال الدين، بلغ عدده نحو ثلاثة آلاف فارس، ونحو ثلاثة أمثال هذا العدد من الرجالة، والواقع أن هذا الجيش يمثل القوة الضاربة الكاملة لدى صليبيين شمالي الشام، عدا حاميات الحصون، وعندما احتشد هذا الجيش أمام حران كان جكرمش وحليفه لا يزالان يزحفان نحو " الرها "[2].

كاد الصليبيون أن يستولوا على حران، بعد وقت قصير من فرض الحصار عليها، إلا أن الخلاف الذي نشب بين بلدوين لي بور، وبوهمند، وإصرار كل منهما على رفع رايته على المدينة بعد الاستيلاء عليها، ساعد على صمود حران، وأتاح للمسلمين فرصة التحرك لقتال الصليبيين قبل سقوط هذا الموقع بأيديهم، وتم اللقاء بين الطرفين على نهر البليخ في التاسع من شعبان، حيث أظهر المسلمون الهزيمة، فتبعهم الصليبيون نحواً من فرسخين، فأعاد المسلمون الكرة عليهم، وأبادوا معظم قواتهم[3]، وغنموا مقادير كبيرة من الأموال والممتلكات [4]، وكان بوهمند أمير أنطاكية وابن أخته تانكر، قد كمَنا خلف إحدى المرتفعات لينقضّا على المسلين من مؤخرتهم حين يشتد القتال، فلما خرجا شاهدا هزيمة رفاقهم ونهب معسكراتهم، فأقاما في أماكنهما إلى الليل، ومن ثم تسللاً هاربين،

(1) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 95 عماد الدين خليل.
(2) الحروب الصليبية رنسمان (71/2 - 72) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص96.
(3) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 96.
(4) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 96.

فتبعهما المسلمون وقتلوا وأسروا من أصحابها عدداً كبيراً، بينما تمكّنا هما من الفرار إلى الرها. أما بلدوين وجوسلين فقد تم أسرهما. وكان بلدوين قد انهزم مع جماعة من قواده وخاضوا نهر البليخ، إلا أن الأوحال أعاقت تحرُّكهم السريع؛ فلحقهم قائد تركماني من أصحاب سقمان وتمكن من أسرهم؛ حيث حمل بلدوين إلى سيده سقمان [1].

ب - الخلاف بين جكرمش وسقمان: وعندما رأى أصحاب جكرش أنّ قوات سقمان قد استولت على حصة الأسد من غنائم الصليبيين قالوا لسيدهم: أي منزلة تكون لنا عند الناس وعند التركمان إذا انصرفوا بالغنائم دوننا؟ وحسنوا له اختطاف بلدوين، فأرسل جكرمش بعض أصحابه، حيث تمكنوا من اختطاف بلدوين، فأرسل جكرمش بعض أصحابه، حيث تمكنوا من اختطاف الأمير الصليبي من معسكر سقمان. فلما علم هذا بما حدث، وكان خلال ذلك غائياً عن مقره، شق عليه الأمر، وتهيأ أصحابه للقتال، إلا أنه مالبث أن ردّهم وقال لهم: لا أوثر شفاء غيظي بشماته الأعداء بالمسلمين[2]، ومن ثم تقَّدم على رأس قواته، وأخذ سلاح الصليبيين ورياتهم، وألبس أصحابه ملابسهم وأركبهم خيلهم وجعل يأتي حصون إقليم شبختان من ديار بكر، فيخرج الصليبيون منها، ظناً منهم أن أصحابهم قد انتصروا فيجابههم سقمان ويقضي عليهم ويقتحم حصونهم، وتمكن بذلك من وضع يده على عدد من حصون المنطقة، وقفل عائداً إلى مقر إمارته في ديار بكر [3].

ج - هزيمة جكرمش: قرر جكرمش المضي في القتال بعد عودة حليفه، وقام باقتحام قلاع الصليبيين في إقليم شبختان الممتد إلى شرق الرها؛ ليحمي مؤخَّرته، ومن ثم واصل السير إلى الرها نفسها وإذ أدى تمهل الصليبيين من قبل إلى الأبقاء على حران بأيدي المسلمين، فقد أبقى الرها للمسيحيين ما حدث من تمهل المسلمين إذ توفر لتانكرد من الوقت ما يكفي لإصلاح وسائل الدفاع وبذا استطاع أن يردَّ أول هجوم قام جكرمش، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى ما أظهره الأرمن والمحليون من الولاء والبسالة غير أن ما أحس به تانكرد من ضغط شديد، حمله على المبادرة بالاستنجاد ببوهمند، ومع أن هذا كان يواجه مشاكل عديدة، إلاَّ أنه رأى لا بدَّ من جعل الأسبقية لدرء الخطر عن الرها، فنهض لمساندة ابن أخته، غير أنه عطله ما كانت عليه الطرق من أحوال سيئة. واستبدَّ اليأس بتانكرد فأمر رجال الحامية بأن يتخذوا أماكنهم للهجوم قبل بزوغ الفجر، وتحت جنح الظلام انقضَّ رجاله على الأتراك الذين استغرقوا في ثُبَاتِهم مطمئنين، واكتمل الانتصار الصليبي بوصول بوهمند، فهرب جكرمش مذعوراً، وخلف من ورائه معسكره الزاخر بالثروة فانتقم الفرنج من هزيمة حران، وتم احتفاظهم بالرها [4] وكان من بين الأسرى الذي وقعوا في يدي تانكرد أميرة سلجوقية من عقائل بيت جكرمش الذي بلغ من تقديره لهذه السيدة أنه بادر لافتدائها مقابل مبلغ كبير من المال 15 ألف بيزنت، أو مبادلتها بالكونت بلدوين نفسه، وبلغت بيت المقدس أنباء هذا العرض،

(1) المصدر نفسه ص 97.
(2) الكامل في التاريخ (466/8).
(3) المصدر نفسه (466/8) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 97.
(4) الحروب الصليبية ص 98.

فأسرع الملك بلدوين بالكتابة إلى بوهمند بألاً يجعل هذه الفرصة تفلت حتى يتم إطلاق سراح بلدوين. غير أن بوهمند وتانكرد احتاجاً إلى المال على حين أن عودة بلدوين سوف تخرج تانكرد من وظيفته الحالية - كمسؤول على الرها - ليعود إلى أنطاكية؛ ولذا ردًا على رسالة الملك: أنه ليس من الدبلوماسية في شيء أن يظهروا لهفتهما الشديدة على قبول العرض، على حين أنهما إذا تردّدا في القبول ربما لجأ جكرمش إلى زيادة الفدية. غير أنه في تلك الأثناء تم اتفاقهما مع جكرمش على قبول عرضه النقدي؛ وبذا بقي بلدوين في الأسر [1].

د - نتائج معركة البليخ أو حرّان: كانت لمعركة البليخ نتائج بالغة الأهمية على الصعيدين الإسلامي والصليبيين، لعل أهمها:

- أوقفت تقدم الصليبيين وتوسعهم باتجاه الشرق على حساب المسلمين، وقضت على آمالهم في التقدم نحو العراق وإتمام سيطرتهم على إقليم الجزيرة.

- تلاشت أحلام بوهيموند في السيطرة على حلب، وتحويل إمارة إنطاكية إلى دولة كبيرة، وقضت على آمال الصليبيين بقطع الاتصال بين القوى الإسلامية في الشام والجزيرة وآسيا الصغرى عن طريق الاستيلاء على حلب.

- قرّرت مصير إقليم الرها. ذلك أن هذه الإمارة تعرضت لكثير من المتاعب الداخلية التي أضعفتها وبخاصة من جانب الأرمن الذين سرعان ما أبدوا تذمراً من الحكم اللاتيني بفعل تعسف هؤلاء مع الكنيسة الأرمينية، واضطهاد رجالها مما دفع الأرمن إلى الاتصال بالأتراك وأضحى احتمال سقوطها في أيدي المسلمين وشيكاً [2].

- أتاحت للمسلمين فرصة استعادة الأملاك التي خسروها في السابق، وضُمَّت إلى إمارة أنطاكية.

- أضحى تانكْرد، بعد أسر بلدوين، وصياً على إمارة الرها، كما أصبح بوهيموند أقوى الأمراء الصليبيين في الشمال.

- أدَّت ظروف الانتصار إلى زيادة التقارب بين القوى الإسلامية والبيزنطيين ضد عدوهم المشترك وأوضح ابن القلانسي خطورة النتائج بقوله: وكان نصراً حسناً للمسلمين، لم يتهيأ مثله، وبه ضعفت نفوس الإفرنج، وقلَّت عدتهم، وفلَّت شوكتهم، وقويت نفوس المسلمين، وأرهفت عزائمهم في نصرة الدين، ومجاهدة الملحدين، وتباشر الناس بالنصر عليهم، وأيقنوا بالنكاية فيهم والإدالة منهم.

- حطَّمت أسطورة أن الصليبيين لا يقهرون [3].

- استغل الإمبراطور البيزنطي الكسيوس فرصة ضعف مركز بوهمند إثر تعّرضه للانتقاد

(1) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 99.
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 65.
(3) المصدر نفسه ص 95.

بسبب عدم افتدائه لرفيقه بلدوين، فضلاً عن التزامه بالمعاهدات التي كان عقدها مع الإمبراطور الذي راح يشجع الانتفاضات التي قام بها سكان قليقية ضد حكامهم النورمان، كما أوعز إلى قواته بالاستيلاء على عدد من المدن والمواقع التي كان تانكرد قد استولى عليها من قبل، واشترك الأسطول البيزنطي في السيطرة على بعض المدن الساحلية بين اللاذقية وطرطوس، يضاف إلى ذلك أن البيزنطيين تمكنوا من استغلال قواعدهم البحرية في قبرص لتقديم المساعدات لريموند الضجلي - عدو بوهمند الدود - الذي كان يسعى لتأسيس إمارة حول طرابلس تحاذي أنطاكية من الجنوب في الوقت الذي لم يتقدم فيه أحد من القدس لنصرة بوهمند ومساعدته في هذه المحنة [1].

وهكذا قدر لجكرمش بتحالفه مع سقمان، أن يلعب دوراً خطيراً في تاريخ الحروب الصليبية، وأن يقدم وحليفه للعالم الإسلامي أول نصر حاسم على الصليبيين، فتح به الطريق لظهور قيادات وأحلاف إسلامية وجهت الضربات المتتالية للقوى الصليبية، تلك القيادات التي بدأت بمودود حاكم الموصل السلجوقي، وانتهت بصلاح الدين، عبر إيلغازي وبلك الأرتقيين، وآق سنقر البرسقي، ثم عماد الدين ونور الدين الزنكيين [2].

ه ـ **مواصلة جكرمش للجهاد** ورغم بعض البوادر السلبية التي أعقبت انتصار المسلمين في البليخ فإن جكرمش ظل يطمح لتحقيق انتصارات أخرى في هذا الميدان، وبعد أقل من سنتين أتيح له ذلك عندما تلقى في أواخر عام 499هـ - 1106م أمراً من السلطان محمد بالقيام بحملة جديدة لمهاجمة الصليبيين، فاتصل بأمراء المنطقة وتمكن من تشكيل حلف يضم رضوان أمير حلب وإيلغازي الأرتقي أمير ماردين وألبي تمرتاش صاحب سنجار والأصبهذ صاوا أحد كبار أمراء فارس إلاَّ أن ما طرحه إيلغازي على الأمراء المذكورين، أعاق تنفيذ الخطة المقترحه؛ إذ طلب منهم أن يبدؤوا حملتهم ضد جكرمش بقصد الاستيلاء على الموصل لكسب رضا السلطان محمد الذي كان يحقد على حاكم الموصل بعض تصرفاته، فضلاً عن إمكانية الاستفادة المباشرة من ميزان الموصل وإمكانياتها المالية والعسكرية ضد الصليبيين فوافقه زملاؤه على ذلك ومضوا سوية لمهاجمة نصيبين التابعة لحاكم الموصل. إلا نواب جكرمش هناك نجحوا - بتوجيه من سيدهم في الموصل - في إثارة النزاع والكراهية بين رضوان وإيلغازي، فاغتنم رضوان فرصة إقامة وليمة أمام أسوار نصيبين وقام باختطاف إيلغازي وتكبيله واعتقاله، إلا أن أتباعه من التركمان تمكنوا من تخليصه، وقاموا بهجوم مباغت على معسكر رضوان أرغمه على الانسحاب والعودة إلى حلب وبذا تمزق هذا التحالف قبل أن يخطو خطوة واحدة صوب هدفه الأساسي في قتال الصليبيين [3].

إلا أن ذلك كله لم يثني جكرمش عن عزمه على مهاجمة أعدائه الحقيقيين، إذ إنه ما أن تمكن من إحباط مساعي الأمراء المتحالفين ضده حتى بادر بشن الهجوم على الرها، إلا أنه مالبث أن عاد إلى الموصل ليواجه متاعب جديدة تجاه السلاجقة بعد أن نجح في التغلب على هجوم قامت به

(1) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 100.
(2) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 102.
(3) المصدر نفسه ص 103.

عساكر، ريتشارد (سالرنو) الذي كان يحكم الرها آنذاك نيابة عن بلدوين المأسور. ولم يمض وقت قصير على ذلك حتى تحرك قلج أرسلان، سلطان سلاجقة الروم، لمهاجمة الرها، فانتهز نواب جكرمش الفرصة وأرسلوا إليه يستدعونه يسلموا إليه البلد، فتقدم قلج أرسلان إلى هناك ودخل حران، وفرح به الناس لأجل جهاد الفرنج [1]، وأقام هناك أياماً اضطر بعدها للعودة إلى بلده بسبب مرض شديد ألّم به تاركاً في حران جماعة من أصحابه لحمايتها [2]، ويبدو أن شخصية قلج أرسلان بدأت تطغى - بما تمتع به من قوة واستقلال ونفوذ - على شخصيات رفاقه من الأمراء المسلمين في المنطقة بسبب خلافاتهم المستمرة، وتطاحنهم الدائم من أجل تحقيق مكاسب إقليمية محدودة فضلاً عن أن المشاكل التي جابهت جكرمش في الموصل، وتدهور علاقته مع السلاجقة صرف اهتمامه كلية عن ساحة الجهاد ضد الصليبيين، الأمر الذي أدّى إلى أن يستقطب قلج أرسلان اهتمام نواب جكرمش في حران فاستدعوه وسلّموه البلد، مما يفسر لنا - كذلك - ما حدث بعد قليل من استدعاء قلج أرسلان من قبل أهالي الموصل كي يتولى حكمهم، إثر مقتل حاكمهم السابق جكرمش[3].

3 - قلج أرسلان وجهاده الكبير في آسيا الصغرى: لم يكد الغرب الأوروبي يعلم بنبأ النجاح الذي حقّقته الجموع الصليبية في بلاد الشام وفلسطين حتى تحمّس كثير من الأمراء الذين لم يشاركوا من قبل في الذهاب إلى الشرق، تدفعهم مطامع شخصية دنيوية وهي الحصول على الغنائم والضياع فضلاً عن مطامع دينية وهي الحصول على الثواب والغفران، ويُذكر بأن الصليبيين في الشرق كانوا بحاجة ماسّة إلى محاربين ومستعمرين بهدف:

- مواصلة الحرب ضد المسلمين.
- استئناف عملية التوسع.
- حراسة ما حقّقوه من مكاسب.
- المحافظة على هذه الحقوق ضد أي محاولة استرداد من جانب المسلمين.
- استجاب المجتمع الغربي لهذه الظاهرة، وانبعث منه صحوة صليبية أسفرت عن تدفق جموع صليبية أخرى إلى الشرق. وشكّل اللمبارديون أولى تلك الجموع، فغادروا إيطاليا في عام 494هـ/1101م بقيادة أنسلم بوي رئيس أساقفة ميلان، وصحبه عدد من الأمراء من بينهم ألبرت كونت بينادرات، جيوبرت كونت بارما، وهيوكونت مونتيلو [4]، ويبدو أن هذه المجموعة اللمبارديه على الرغم من وفرة عدد المشتركين فيها، لم تكن تختلف كثيراً من حيث النوعية عن جموع العامة السابقة، بدليل أنّها لم تضم سوى عدد قليل من الفرسان المحاربين، تألّفت غالبيتها العظمى العامة الذين لا يحسنون القتال، ويفتقرون إلى النظام، ولما وصلوا إلى ضواحي القسطنطينية ارتكبوا أعمال

(1) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 103.
(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن المقاومة الإسلامية ص 104.
(3) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 104.
(4) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا ص 96.

السلب والنهب مما حمل الأمبراطور البيزنطي على الإسراع بنقلهم إلى آسيا الصغرى، وذلك في جمادي الأولى/آذار واستقروا في نيقوميدية بانتظار وصول جموع أخرى [1]، وفعلاً لم تلبث أن وصلت مجموعة أخرى من الفرنسيين بقيادة ستيفن بلوا، وانضم إليه عدد من الأمراء أمثال ستيفن كونت برجنديا وهيوكونت بروي، وبلدوين كونت جرانبريه، وهيوبييرفون أسقف سواسون بالإضافة إلى سرية ألمانية وعبرت هذه المجموعة البوسفور، وعسكر أفرادها عند نيقية على مقربة من المعسكر اللمباردي، وبلغ عدد أفراد المجموعتين بين مائتين وثلاثمائة ألف مقاتل، وعين الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين صديقه ريموند تولوز، قائداً عاماً عليهم، وألحق بهم جماعة من الجنود البيزنطيين بقيادة تسيتاس [2].

معركة مرسيفان: تحرك الجيش الصليبي الضخم من نيقوميدية إلى دور يليوم بهدف الوصول إلى الأراضي المقدسة، على أن يعيد أثناء زحفه فتح الطريق الذي يجتاز آسيا الصغرى؛ لذلك أوصى الأمبراطورستيفن بلو بأن يسلك الجيش الطريق الذي سلكته الجموع الصليبية السابقة الذي يجتاز دوريليوم وقونية، غير أن اللمبارديين رفضوا التوجه إلى الأراضي المقدسة إلا بعد فك أسر بوهيموند الذي اتخذوه مثلاً يُحتذى وبطلاً لهم، والمحارب الوحيد الذي يثقون به ليقودهم إلى النصر، وأصروا بأن تتوجه الحملة إلى كمبادوكية ويذكر ابن الأثير أن هدف تلك الجموع الصليبية كانت تخليص بوهيموند من الأسر [3]، وعلى الرغم من احتجاج بعض القادة الأمراء لقلج أرسلان، فاستولوا عليها وتابعوا طريقهم إلى كنغري الواقعة في جنوب بافلاجونيا كي يسلكوا الطريق الرئيسي المؤدي إلى أماسية ونيكسار وحتى يعرقل التقدم الصليبي، واتَّبع أسلوب البدو بتخريب البلاد أثناء انسحابه وحرق كل ما يمكن أن يستفيد الصليبيون منه وبخاصة مواد التموين وفي الوقت نفسه، أخذت القوى التركية تتجمَّع في تحالف جديد لمواجهة الخطر الصليبي، فبادر كمشتكين أحمد الدانشمند بتجديد تحالفه مع قلج أرسلان، كما حثَّ رضوان صاحب حلب على أن يرسل عدداً من الجنود [4].

وصل الصليبيون إلى كنغري فألفوا الأتراك فيها بكامل قوتهم، واستعصت عليهم المدينة لمناعتها، فاضطروا إلى متابعة سيرهم بعد أن نهبوا القرى المجاورة لكن التعب بدأ يظهر عليهم بسبب النقص في المؤن، وشدة الحرارة، ومضايقة الأتراك واقترح ريموند، حتى يجنَّب الجيش الدمار المخفَّف أن يتوجه صوب الشمال الشرقي إلى قسطموني؛ ومنها إلى إحدى المدن البيزنطية على ساحل البحر الأسود. على أن الرحلة إلى قسطموني كانت بطيئة وشاقة بسبب نفاذ المؤن وتدمير الأتراك للمحاصيل الزراعية، وردمهم للآبار، وتعرض الصليبيون بهجوم تركي مفاجئ فتفرقوا ولا يلوون على شيء قبل أن يعيد ريموند لم شعثهم ولما وصلوا إلى أطراف قسطموني، كان

(1) المصدر نفسه ص 96.
(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ سلاجقة الروم ص 97.
(3) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا ص 97.
(4) الحروب الصليبية (43/2) رنسيمان.

على ريموند أن يشق طريقاً بين الجموع التركية إلى الساحل، على أن اللمباردين، أصروا مجدداً على التوجه إلى الشرق، ونزل باقي الأطراف على رأيهم مرغمين [1].

واجتاز الجيش الصليبي نهر هاليس إلى بلاد الدانشمدين ووصل أفراده إلى مدينة مرسيفان الواقعة في منتصف الطريق بين النهر وأماسية [2]. وعندما أدرك الأتراك أن القوة الصليبية أصبحت منهكة تقدَّموا نحوها واصطدموا بها، ولم يمض وقت طويل حتى تضعضع الصليبيون وفرُّوا من أرض المعركة تحت ضغط القتال مخلفين وراءهم نساءهم ورهبانهم ولجأ ريموند إلى تل صغير احتمى به إلى أن أنجده الفرنسيون والألمان، ثم هرب خلال الليل بعدما يئس من إحراز أي نصر، وترك وراءه المعسكر الصليبي ومن كان به من غير المحاربين ليقع غنيمة في أيدي الأتراك [3]. تلت المعركة عملية مطاردة لم ينج منها إلا الفرسان، وبلغت خسائر الصليبيين أربعة أخماس الجيش [4]، واستولى الأتراك على كميات كبيرة من الأسلحة، وغنموا كثيراً من الأسرى بيعو رقيقاً ولم يلبث ريموند أن وصل إلى بافرا، المينا البيزنطي الصغير على البحر الأسود قرب سينوب، وأقلتّه من هناك سفينة بيزنطية إلى القسطنطينية[5].

ويشير المؤرخ اللاتيني ألبرت أوف أكس، أن ريموند تلقى رشوة من الأتراك كي يقود الجيش إلى قسطموني، وهذا مستبعد؛ لأن من يتتبع سير الحملة وما رافقها من أحداث يلمس مدى ما بذله ريموند من جهد في إقناع اللمبارديين بعدم التوجه إلى بلاد الدانشمنديين أولاً، ثم محاولته إخراج الجيش من المأزق التي أوقع نفسه فيها ثانياً، وما اختياره للطريق إلى قسطموني إلا نتيجة لما تعَّرض له الجيش من متاعب وأما فراره من أرض المعركة، فناتج عن إدراكه بعدم جدوى متابعة القتال بعد أن وليَّ اللمبارديون الأدبار وتبعهم البجناك المرتزقة [6].

ب ـ معركة هرقلة الأولى: محت الكارثة التي حلَّت بالصليبيين في مرسيفان، الشهرة، التي أكتسبها هؤلاء نتيجة انتصارهم في دويليوم وزاد من أثرها أنها لم تكن الكارثة الأخيرة. إذ، في الوقت الذي غادر فيه اللمبارديون مدينة نيقوميدية، وصل إلى القسطنطينية جيش فرنسي بقيادة وليم كونت نيفر على رأس خمسة عشر ألف من الفرسان والمشاة وحرص وليم على اللحاق باللمبارديين على وجه السرعة، فغادر القسطنطينية إلى نيوقوميدية، وعلم فيها أن الجموع الصليبية مضت في طريقها إلى أنقرة فسار إلى هذه المدينة ووصل إليها بسهولة. لكن لم يكن أحد يعلم بالجهة التي سارت إليها هذه الجموع؛ لذلك لم يسع الكونت إلاَّ أن توجه نحو قونية، ولما وصل إليها ضرب الحصار عليها، وتولت حامية تركية سلجوقية الدفاع عنها، وما قام به من محاولات للاستيلاء عليها

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 98.
(2) المصدر نفسه ص 98.
(3) المصدر نفسه ص 98.
(4) المصدر نفسه ص 98.
(5) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغريى ص 99.
(6) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 99.

باءت بالفشل فتركها [1]. كان السلاجقة وحلفاءهم قد فرغوا، في غضون ذلك، من إبادة الجموع اللمبارديـة، وعلم قلـج أرسـلان وكمشـتكين أحمـد دانشـمند بقـدوم هـذا العـدو الجديـد، وإذا لا زالـت تغمرهما حرارة الانتصار، سارا نحو الجنوب، وسبقا وليم إلى هرقلة وسارت عساكر نيفر ببطء من قونية متوجهين نحو الشرق، ولما وصلوا إلى مكان قريب من هرقلة، وكان التعب قد استبد بهم، هاجمهم الأتراك، فانهارت مقاومتهم بعد معركة لم تستمر طويلاً، ولقي الجيش الفرنسي بأسره مصرعه، باستثناء الكونت وستة من أتباعه [2].

ج ـ معركة هرقلة الثانية: في الوقت الذي كانت فيه حملة نيفر تجوس آسيا الصغرى، وصلت الدفعة الأخيرة من تلك الجموع الصليبية إلى القسطنطينية، وتألّفت من فرنسيين وألمان بقيادة وليم التاسع دوق أكويتين، وولف الرابع دوق بافاريا، وبلغ عدد أفرادها ستين ألف مقاتل خرجت هذه الجموع من القسطنطينية باتجاه قونية، وسلكت الطريق نفسه الذي سلكه، بوهيموند، من قبل، وانتهج الأتراك تجاهها الخطط نفسها التي طبّقوها من قبل، بإحراق الغلال وإتلاف المؤن وطمر الآبار، ولما وصل أفراد هذه المجموعة إلى قونية وجدوا المدينة خاوية وكانت الحامية السلجوقية قد أخلتها بعد أن قاومت حملة نيفر، وحملت معها كل ما كان فيها من مؤن، كما جردت البساتين والحدائق من كل ما يمكن أن يفيد الصليبيين [3]ولم يمكث الصليبيون في قونية وغادروها إلى هرقلة عن طريق يبلغ طوله خمسة وخمسون ميلاً، فعانوا من المتاعب الكثيرة حتى اشتد بهم الجوع والعطش وكان الأتراك يتخطفونهم بالقتل بين الحين والآخر، ولما دخلوا إلى المدينة وجدوها مهجورة[4]، تربَّص المسلمون في هذا الوقت بالصليبيين، وكمنوا لهم في الغابات المحيطة بهرقلة، وباغتوهم وهم يشربون من ماء ذلك النهر المتفجر وراء المدينة، وعندما اضطرب نظامهم، انقضَّ عليهم الأتراك وأبادوهم عن آخرهم، باستثناء قلة قليلة استطاعت النجاة بصعوبة، من بينهم وليم التاسع وولف الرابع وتوجها إلى طرسوس ومنها إلى أنطاكية [5].

د ـ نتائج معارك قلج أرسلان السابقة: انتهت كل مجموعة من المجموعات الثلاث نهاية محزنة أثَّرت نتائجها في سير الحركة الصليبية من جهة وفي الأتراك بعامة والسلاجقة بخاصة من جهة أخرى وأهم هذه النتائج هي:

- ثأر السلاجقة بما حلَّ بهم في دوريليوم، فلن يجري بعدئذ طردهم من الأناضول كما رفعت الانتصارات المتتالية روحهم المعنوية.

- ظل الطريق الذي يجتاز آسيا الصغرى إلى بلاد الشام غير آمن للجيوش الصليبية والبيزنطية على السواء على الرغم من نجاح المجموعات الصليبية الأولى في اقتحامه، فخشي

(1) المصدر نفسه ص 99.
(2) المصدر نفسه ص 99، 100
(3) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 100.
(4) المصدر نفسه ص 100.
(5) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغربى ص 100.

المهاجرون الصليبيون سلوك هذا الطريق البري الذي يجتاز القسطنطينية إلى إيسوس، مالم يكونوا في جيوش ضخمة، ولم يعد بوسعهم القدوم إلا بحراً مع ما يتطلَّب ذلك من مصاريف اضافية لم يتمكن من دفعها إلا القليل. وظل هذا الطريق البري مغلقاً في وجه الصليبيين عدة أعوام [1].

- ألقى الصليبيون اللوم على البيزنطيين بما حلَّ بهم من مصائب وحملوهم مسؤولية ما حدث. وتردَّدت الشائعة بينهم أن ريموند كان يُنفِّذ تعاليم الأمبراطور عندما أخرج الجيش الذي يقوده عن طريق المرسوم ليلقى أفراده حتفهم في كمين سبق إعداده، والواقع أن اللاتين أرادوا التماس كبش فداء يتحمَّل مسؤولية أخطائهم، فألقوا اللوم على البيزنطيين، وعدُّوهم مسؤولين عما حلَّ بهم من كوارث[2].

- لم يلبث قلج أرسلان أن ازداد افتخاراً بعد هذه الانتصارات وشاركه سائر أتراك الأناضول، وأضحى بوسعه أن يعيد سيطرته على جوف الهضبة، ثم أقام في عاصمته قونية الواقعة على الطريق الرئيسي الذي يربط القسطنطينة لبلاد الشام [3].

- استأنف الدانشمنديون فتوحهم في وادي الفرات دون عائق وبلغوا أطراف إمارة الرها، كما فتحوا ملطية وأسروا حاكمها في 23 ذي الحجة 495هـ/ 18 أيلول 1102م.

- أعاد رحيل الصليبيين إلى بلاد الشام الخصومة والتنافس بين السلاجقة والدانشمنديين، وتنازع البيتان التركيان الكبيران حول امتلاك ملكية وفدية بوهيموند، فتفكَّكت بذلك جبهة الأتراك في المنطقة [4].

- **أثر وفاة قلج أرسلان:** راسل زنكي بن جكرمش قلج أرسلان الأول يستنجد به وكان آنذاك في ملطية، ووعده بتسليمه الموصل والأعمال التابعة لها، واستغل السلطان قلج السلجوقي هذه الفرصة للتوسع على حساب الأمراء المتنازعين، فأسرع لنجدة زنكي، ولما علم جاولي بمسيره، انسحب من المدينة، لا سيما وقد توفي جكرمش فجأة وهو في الأسر، وكان ينوي اتخاذه أداة للمساومة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه أدرك أن لقلج أرسلان الأول من القوة ما لايستطيع مجابهته في معركة سافرة؛ لذلك قرَّر تكوين حلف مناهض له حتى يدعم موقفه[5]، لكن قلج أرسلان الأول تمكَّن من دخول الموصل وسط ترحيب السكان، وقد وعدهم باحترام حرياتهم وأجرى فيها بعض الترتيبات الإدارية [6]، وأما جاولي، فقد انسحب إلى سنجار، وأجرى مباحثات مع كل من إيلغازي الأرتقي ورضوان صاحب حلب، واتفق في نهايتها على طرد قلج أرسلان الأول في الموصل، والتوجه بعد ذلك لمهاجمة أنطاكية وانتهت الحرب ضد قلج أرسلان الأول بهزيمته وغرقه

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 101.
(2) المصدر نفسه ص 101.
(3) المصدر نفسه ص 101.
(4) المصدر نفسه ص 101.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 68.
(6) المصدر نفسه ص 68.

في نهر الخابور [1] في عام 500هـ/1107م[2]، ويعتبر قلج أرسلان الأول من الشخصيات الفذَّة التي أنجبتها سلاجقة الروم، وتأثر الشرق الأدنى بمختلف فئاته بموته.

- فسلاجقة الروم الذين لم يظهر بينهم زعيم قوي يحل محل قلج أرسلان تعرَّضوا لضغط متزايد من جانب الأمبراطورية البيزنطية التي جدَّدت تدخلها في شؤونهم الداخلية، واستطاع ألكسيوس كومنين أن يعيد - باطمئنان - سيطرته على المناطق الغربية لآسيا الصغرى وعلى امتداد ساحلها الجنوبي.

- أطالت وفاة قلج أرسلان من عمر دولة السلاجقة العظام، ما يقرب من مائة عام. ذلك أن الانقسامات الحادة داخل الدولة بين السلاطين والأمراء للسيطرة على العرش، وكثرة الحروب الداخلية بينهم بالإضافة إلى الأخطار الخارجية التي أحاقت بهم، كخطر الحشيشية والخطر الصليبي، وشجَّع قلج أرسلان على التدخل في شؤون الشرق للسيطرة على مقاليد الحكم، وليوحَّد من جديد كل القوى السلجوقية في المشرق وكان باستطاعته تحقيق حلمه هذا، فالظروف السياسية الداخلية والخارجية مواتيه غير أن وفاته أنقذت السلاجقة العظام من الزوال وأطالت أمد عمرها.

- تُعدُّ وفاة قلج أرسلان مرحلة بالغة الأهمية في انفصال سلاجقة الروم عن سلاجقة المشرق. ذلك أن الأخطار الداخلية والخارجية التي أحاقت بدولة السلاجقة العظام حالت بينهم وبين التدخُّل في شؤون الفروع السلجوقية الأخرى وبخاصة في بلاد الشام وآسيا الصغرى، والجدير بالذكر أن دولة سلاجقة الروم كانت لا تزال حتى ذلك الوقت تابعة اسمياً للسلاجقة العظام، ولم تستقل تماماً إلا في عام 552/1157م [3].

- حرم موت قلج أرسلان سلاجقة الشام من قوة كانت كفيلة بإقامة الوحدة بينهم، ذلك أن السيادة السلجوقية في بلاد الشام، أخذت تتقلصَّ سريعاً؛ لأن ابنى تتُشى، رضوان ودقاق لم يتمتعا بالمقدرة السياسية التي تمكَّنهما من مواجهة الأوضاع القلقة التي عاشتها بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، وأوائل القرن التالي، ولعل أكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة في بلاد الشام والعراق وغيرهما، هو ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة التي تجمعها رابطة الاتصال بالبيت السلجوقي وظهرت من تلك البيوت، وحدات سياسة أطلق عليها اسم الأتابكيات وعلى أصحابها اسم الأتابك [4].

- أزالت وفاة قلج أرسلان خطراً شديداً عن صدر الإمبراطورية البيزنطية في وقت حرج، إذ كان بوهيموند يستعد لمهاجمة بلاد البلقان في عام 501هـ/1107م انطلاقاً من حصن دورازو المنيع وقد ضحى الكسيوس كومنين بحدود بلاده الجنوبية الشرقية من أجل إنقاذ دورازو، فعقد معاهدة مع قلج أرسلان حصل بموجبها منه على مساعدة عسكرية، إلا أن وفاته المفاجئة، وعدم وجود شخصية

(1) نهر الخابور: نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة.
(2) الكامل في التاريخ (502/8).
(3) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 111.
(4) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 111.

قوية تحل محله، أعطاه الفرصة ليتفَّرغ وهو مطمئن، لمواجهة خطر بوهيموند، الذي انهزم أمامه عام 502هـ/1108م[1].

- جعلت وفات قلج أرسلان الموقف في آسيا الصغرى مائعاً إذا أن أكبر أولاده الأربعة وهو ملكشاه أضحى أسيراً في يد السلطان محمَّد بعد معركة الخابور، بينما استولت أرملته على ملطية والأقاليم الشرقية بمساعدة الأمير أيدبر الذي اعترف بسيادة طغرل أرسلان - أصغر أولاد قلج أرسلان - على بلاد الروم، أما الأخوان الآخران، وهما مسعود وعرب، فقد عاش الأول في بلاد الدانشمنديين في حين استقر الثاني في قوينه [2].

- لم يكن انهيار الحكم المركزي لسلاجقة الروم لصالح البيزنطيين، لأن أولئك استمروا في شنَّ الغارات على أراضي الإمبراطورية على بعض الحصون في المناطق الحدودية[3]، على أنه لم يشأ أن يغامر بالقيام إلى قليقلة أو إلى بلاد الشام، وكان هذا التصرف منه لصالح السلاجقة الذين تفرَّغوا لمعالجة مشكلاتهم الداخلية[4].

4 - جاولي سقاوة: بعد وفاة قلج أرسلان وغرقه في نهر الخابور عام 500هـ/1107م أضحى بوسع جولي أن يدخل الموصل، غير أن ما اقترن به حكمه من الوحشية لم يلبث أن جعله مكروهاً عند الناس كما أنه لم يزد عن جكرمش فيما أظهره من الاعتراف بسلطة السلطان محمد على الرغم من أنه خطب باسمه في الموصل [5]، إذ أعلن استقلاله وقطع كل صلة به، مما دفع السلطان محمد لأن يعهد في شهر ذي القعدة عام 501هـ/شهر حزيران عام 1108م إلى أحد رجاله، وهو مودود بن التونتكين بطرد جاولي من الموصل والحلول مكانة في حكمها [6]، وهكذا اضطر جاولي إلى الفرار مجدَّداً من الموصل، وذهب إلى الجزيرة حيث التفَّ حوله جميع أعداء الدولة السلجوقية وعلى رأسهم قبيلة بني مزيد العربية، كما لم يتردد في محالفة القوى الصليبية المجاورة، فأطلق سراح بلدوين الثاني دي بورج أمير الرها، وعقد معه تحالفاً ضد السلاجقة [7]. ودخل مودود الموصل وسط ترحيب السكان في شهر صفر عام 502هـ/ شهر أيلول عام 1108م [8].

5 - شرف الدولة مودود بن التونتكين 501هـ - 507هـ/1108م - 1113م: يحتل مودود مكانة خاصة في تاريخ الجهاد ضد الصليبيين، وقد أسهمت في تكوين هذه المكانة عوامل عدة أهمها:

- لا ريب - الفترة المبكرة التي ظهر فيها، والطابع الإسلامي العميق لشخصيته المتفانية في سبيل أهداف المسلمين الكبرى، وسياسته الداخلية العادلة السمحة وقدرته - بناء على ذلك كله - على

(1) المصدر نفسه ص 112.
(2) المصدر نفسه ص 112.
(3) المصدر نفسه ص 112.
(4) المصدر نفسه ص 112.
(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 68.
(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 68.
(7) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 68.
(8) الباهر لابن الأثير ص 17.

تزعُّم حركة الجهاد وإيجاد نوع من التنسيق، ربما لأول مرّة، بين كافة القوى الإسلامية في ساحات الجهاد، الأمر الذي لن نجده متبلوراً وناضجاً إلاَّ في عهد الأراتقة وزنكي فيما بعد.. وأخيراً نجاحه في وضع الصليبيين في موضع الدفاع، وتحقيقه عدداً من الانتصارات، جاء أحدها عند مرتفعات طبرية في قلب فلسطين، بعيداً عن الساحة التي درج عليها الصراع بين ولاة الموصل السابقين وأعدائهم... ثم جاء مقتله السريع، إثر ذلك، في جامع دمشق على أيدي الشيعة الباطنية الأعداء الشرسين لحركة الجهاد والمقاومة، والحزن العميق الذي شمل جماهير المسلمين بعيد اغتياله والكلمات المخلصة التي فاه بها قبيل استشهاده... جاء ذلك كله لكي يؤكد مكانة مودود الإسلامية كبطل من أبطال الحروب الصليبية ورائد من رواد الجهاد الأولين [1].

أ ـ **حملة مودود الأولى ضد الرها:** في عام 503هـ - 1109م بعد أشهر قليلة من استتباب الأمر له في الموصل وبعد أن تلقَّى أمراً من السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه بالتحرك لقتال الصليبيين فبدأ مودود بتشكيل تحالف إسلامي ضم الأمير إيلغازي الأرتقي أمير ماردين بعساكره من التركمان، وسقمان القطبي أمير أرمينية المعروف باسم شاه الأرمن وعدد كبير من المتطوعين [2]وكان هذه أول مرة يجتمع فيها هذا العدد من الأمراء المسلمين لقتال الصليبيين، ولهذا تُعدُّ هذه الحملة فاتحة عهد جديد من النضال ضد الصليبيين، ونقطة تحول هامة من التفرق والتخاذل إلى التجمع والهجوم [3]، وما إن علم الصليبيون في الرها بحشود المسلمين حتى أنفذ بلدوين دي بورج رسولاً إلى بيت المقدس يلتمس النجدة العاجلة من الملك بلدوين، متجاهلاً الاستعانة بـ " تانكرد"صاحب أنطاكية، إذ كان يشك في نواياه، وباتفاقه مع المسلمين ضد الرها وكان الملك بلدوين آنذاك يحاصر مدينة بيروت، ولم يتحرك إلا بعد أن استولى عليها، فأسرع بالمسير نحو الشمال، وصحبه برترام أمير طرابلس، وانظم إليه قرب سميساط، بعض زعماء الأرمن وعلى رأسهم كوغ باسيل، فوصل إلى الرها في آخر شهر ذي الحجة/أواخر شهر تموز، وظل الأتابك مودود يحاصر الرها مدة شهرين دون أن يتمّكن من اختراق استحكاماتها، فلما ترای له جيش بيت المقدس، رفع الحصار عنها وتراجع إلى حران وفق خطة عسكرية محكمة، وانضم إليه طغتكين أتابك دمشق [4]، وقرر الملك بلدوين مطاردة الجيوش الإسلامية، إلا أنه كان عليه أن يوحَّد كلمة الصليبيين قبل أن يقوم بهذا العمل، فاستدعى تانكرد صاحب أنطاكية، ونجح في تحقيق المصالحة بينه وبين أمير الرها [5]، وكان مودود قد أمعن في انسحابه لاستدراج الصليبيين إلى مكان بعيد عن قاعدتهم، ثم تطويقهم بعد أن ينحرف فجأة إلى الشمال لكن عملية المطاردة توقفت فجأة، وانفرط عقد التحالف الصليبي؛ لأنه تضافرت عدة دوافع جعلت الصليبيين يتوقفون عن المطاردة ويتراجعون من المنطقة لعل من أهمها:

(1) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 112.
(2) المصدر نفسه ص 113، تاريخ الزنكيين في الموصل ص 69.
(3) نور الدين محمود، حسين مؤنس ص 123.
(4) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص 271.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 70.

- قد تلقّى الملك بلدوين تحذيراً مبكراً بخطة مودود، ففكّ الحصار عن قلعة شناو التي تقع إلى الشمال الغربي من حران، كما تلقّى إنذاراً من بيت المقدس بتحرك فاطمي ضد بيروت، فقرّر التخليّ عن الحملة [1].

- راجت شائعات في الأوساط الصليبية، بأن رضوان صاحب حلب يستعد لمهاجمة أنطاكية في ظل غياب أميرها، فاضطر تانكرد إلى التخلي عن الحملة.

- وبناء على نصحية الملك، بأن لا جدوى من محاولة حماية الجهات الواقعة شرقي نهر الفرات، أوعز بلدوين إلى السكان بالجلاء إلى الجهات الواقعة على الضفة اليمنى، واحتفظ بحاميات عسكرية في حصني الرها وسروج الكبيرين، وبعض القلاع الصغيرة، مع تدعيم الإمكانات الدفاعية لها، أما مودود فقد اكتفى بمهاجمة مؤخرة الصليبيين العابرين وعاد إلى الموصل [2].

ب - حملة مودود الثانية ضد الرها: جاءت الجولة الثانية بعد أقل من سنتين، إثر الاستنفار الذي دعا إليه وفد من أهالي حلب قدم إلى بغداد للدعوة إلى الجهاد، بعدما رأوا من تمادي رضوان في إذعانه للصليبيين، والهزائم المتتالية التي مُنيَ بها مسلمو الشام والتي يسقط على أثرها عدد من المواقع بأيدي الأعداء. وقد استفز نداء الوفد الحلبي جماهير بغداد وفقهاءها، فقاموا بتظاهرة واسعة طالبوا المسؤولين خلالها - خلفاء وسلاطين - بضرورة إعلان الجهاد وتسيير الجيوش لوقف الزحف الصليبي،.. وقد أسرع الخليفة بإعلام السلطان السلجوقي بما جرى، وطلب منه الاهتمام بالأمر والإسراع بالاستجابة " لنداءات المسلمين، فأصدر هذا أوامره على الفور إلى واليه على الموصل الأمير مودود بتشكيل تحالف إسلامي جديد جاعلاً القيادة الإسلامية لابنه الملك مسعود [3]، واجتمع تحت قيادة مودود، حاكم الموصل، جميع حكام الأقاليم في دولة السلاجقة، سقمان القبطي صاحب خلاط [4]، وتبريز [5]، وبعض ديار بكر، وإيلغازي الأرتقي الذي أناب عنه ابنه أياز، والأميران الكرديان أحمديل صابح مراغة[6].

وأبو الهيجاء صاحب إربل، فضلا عن بعض أمراء فارس بزعامة الأميرين أيلنكي وزنكي ابني بُرسُق أميرا همذان [7]بدأت قوات التحالف عملياتها العسكرية في شهر محرم عام 505هـ شهر تموز عام 1111م بفتح عدة مواقع صليبية شرقي الفرات ثم اتجه أفرادها لحصار الرها، أثارت الحملة الذعر بين السكان، لكن في الحقيقة لم تغيّر الموقف فيها، فقد أعيت المسلمين بسبب مناعتها وصمود أهلها، عندئذ رأى مودود أن يعبر الفرات لمهاجمة تل باشر [8]، فتحولت قوات المسلمين

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص70.
(2) المصدر نفسه ص 70.
(3) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 115 نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(4) قصة أرمينية الوسطى.
(5) تبريز: من أشهر مدن أذربيجان.
(6) مراغة: أعظم وأشهر بلاد في أذربيجان.
(7) ذيل تاريخ دمشق ص 278 - 279.
(8) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 73.

إليها كي يجّروا أعداءهم إلى عبور الفرات فيتمكنوا منهم إلا أن هذا كان خطأً من قادة المسلمين؛ لأن الصليبيين تمكنوا لدى عبورهم الفرات من نقل مقادير كبيرة من الميرة والأعتدة والأقوات إلى الرها فقويت من بعد ضعف كاد يوقعها بأيدي المسلمين لو استمروا على حصارهم لها[1]. ومالبث جوسلين صاحب تل باشر، الذي تعرض لضغط القوات الإسلامية، أن تمكن من رشوة القائد الكردي أحمديل الذي كان الجزء الأكبر من قوات المسلمين بمعيته فانسحب متراجعاً بالرغم من معارضة سائر الأمراء [2]. ولم يمض وقت طويل حتى استنجد رضوان بمودود واستدعى قواته للقدوم إلى حلب كي يعملوا سوية من هناك ضد المواقع الصليبية، فغادر مودود باشر متجهاً إلى حلب على رأس قواته، وما أن ابتعدوا عن تل باشر حتى خرج إليهم جوسلين، على رأس قوة من فرسانه، وتمكن من مهاجمة مؤخرتهم، وقتل ما يقرب من ألف رجل منهم، وعاد إلى بلده مثقلاً بالغنائم ولم تكن دعوة رضوان لمودود صادقة، فلم تكد القوات الإسلامية تقترب من حلب حتى أقفل رضوان بوجهها الأبواب، واتخذ من إجراءات الحيطة لمنع المظاهرات أن أمر باعتقال عدد كبير من أعيان المدينة واتخذهم رهائن ولم يسع مودود إلا أن يتحّرك بجيشه جنوباً إلى شيزر بعد أن أغار على عدد من المواقع الصليبية في الشمال وفي شيزر اجتمع به طغتكين الذي كان قد توجه إلى بغداد طالبا المساعدة لاستعادة طرابلس، إلا أنه خاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الصليبيين سراً وأما تانكرد الذي عسكر أمام شيزر فإنه تراجع إلى أفامية، وأرسل إلى الملك بلدوين يستنجد به، فاستجاب له هذا وبعث إلى سائر الفرسان في الشرق الصليبي ليلحقوا به فانضم إليه عدد كبير منهم، كما قام تانكرد باستدعاء أتباعه من سائر جهات أنطاكية. وأما مودود فقد تحصن خلف أسوار شيزر قبل أن يكتمل حشد الصليبيين الذين بلغ عددهم نحو ستة عشرة الف مقاتل كان على رأسهم ملك بيت المقدس، وأمراء الرها وأنطاكية وطرابلس، ورفض مودود أن يجرَّوه أعداءه إلى معركة حاسمة. إلا أن الأمور لم تجر على نحو طيب في جيشه، إذ إن طغتكين لم يشأ أن يبذل له المساعدة إلاَّ بعد أن تعهد مودود بالمضي في حملته إلى الجنوب لقتال الصليبيين في فلسطين رغم خطورة هذه المحاولة من الناحية العسكرية، وأما برسق الكردي فأصابه المرض وأراد أن يعود إلى بلاده، ومات سقمان القطبي فجأة فانسحبت عساكره صوب الشمال حاملة جثمانه، وبادر أحمديل إلى الانسحاب بعساكره محاولاً انتزاع جانب من ممتلكات سقمان ولم يعد بوسع مودود القيام بالهجوم نظراً لتناقض قواته يوماً بعد يوم كما أنه لم يكن راغباً في أن يقضي الشتاء بعيداً عن الموصل، فقفل عائداً إليها [3].

كان لتلك البوادر السيئة من قبل بعض الأمراء أثرها المباشر على إمكان تحقيق أي نصر حاسم ضد الصليبيين، كذلك الذي حققه جكرمش وسقمان في معركة البليخ. وقد أظهرت هذه الأحداث مدى تفكُّك القيادات الإسلامية وعدم وحدتها، في الوقت الذي تجمعت فيه القوى الصليبية في شمالي الشام

(1) نهر الذهب للغزي (82/3).
(2) مرآة الزمان (35/8 - 36) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 116.
(3) مرآة الزامن (35/8 - 36).

وجنوبه، وحققت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعاً من الزعامة على سائر أمراء الصليبيين [1].

كانت سياسة رضوان في إمارة حلب شرًّا كلها، فقد هادن الإسماعيلية والصليبيين، وحالفهم ضد خصومهم من المسلمين، إذ انضم إلى صاحب أنطاكية الصليبي ضد صاحب الموصل جاولي عام 501هـ وعندما هاجم الأمير مودود صاحب الموصل أنطاكية وتل باشر، رفض رضوان مساعدته وأغلق مدينة حلب في وجهه بل تحالف مع " تنكرد" الصليبي صاحب أنطاكية ضد المجاهدين، وبقيت أبواب المدينة مغلقة سبع عشرة ليلة في وجه الجيش الإسلامي [2]، ولم يحفظ له الصليبيون هذه المواقف فحاصروا حلب عام 504هـ واشتد الحصار، حتى أكل الناس الميتات وورق الشجر، وفرضوا على رضوان مبلغاً من المال كان بجمله إليهم سنوياً [3]، وحصل الإسماعيلية الباطنية الرافضية على مكانة مرموقة في حلب، بفضل تشيع رضوان لآرائهم، ومساعدته لهم، ومن ثم صار يستخدمهم في اغتيال خصومه السياسيين [4]، وكان يميل إلى الفاطميين، فخطب للمستعلي في بلاده، ولوزيره الأفضل، ودامت الخطبة لها عامين في حلب وكان ذميم السيرة، قرّب الباطنية، وعمل لهم دار دعوة في حلب فكثروا وهلك سنة 507هـ [5]، وصفه المؤرخ أبو المحاسن فقال: كان شحيحاً بخيلاً قبيح السيرة، وليس في قلبه رحمة للرعية، وكانت الفرنج تغير وتسبي.. ولا يخرج إليهم [6]، خلفه ابنه ألب أرسلان المعروف بالأخرس، فنكب الإسماعيلية وقتل زعيمهم أبا طاهر الصائغ، وبقية زعماء تلك الطائفة.

ج - حملة مودود الثالثة ضد الرها: ومع أن مودوداً وجد نفسه وحيداً في حركة الجهاد إلا أنه قام في شهر ذي القعدة 505هـ/ شهر أيار 1112م، بمهاجمة الرها فجأة، وحاصرها لكن المدينة صمدت في وجه الحصار، فرأى عندئذ أن يترك حولها قوة عسكرية ويهاجم سروج في شهر محرم عام 506هـ/ شهر تموز عام 1112م بوصفها المعقل الثاني للصليبيين شرقي الفرات. وبهذه الخطة العسكرية يكون مودود قد قسَّم قواته وأضعفها متخلياً عن حذره في مواجهة الصليبيين، وكانت النتيجة أن الحق به جوسلين صاحب تل باشر وهزمه وقتل عدداً كبيراً من رجاله، فلم يسعه عند ذلك إلا التراجع نحو الرها، لكن جوسلين سبقه إليها لمساعدة بلدوين دي بورج في الدفاع عنها، وفي الوقت الذي كانت تدور فيه هذه الأحداث، تآمر الأرمن في الرها ضد بلدوين، واتصلوا بمودود ليخلصّهم من حكم الصليبيين، وجرى الاتفاق على أن يساعدوه في الاستيلاء على قلعة تسيطر على القطاع الشرقي من المدينة، مما يمكنه بعد ذلك من الاستيلاء على بقية المدينة بسهولة، لكن وصول جوسلين السريع حال دون تنفيذ الاتفاق ورُدَّ المسلمون على أعقابهم، فلم يتمكنوا من انتزاع المدينة

(1) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 118.
(2) زبدة الحلب (159/2).
(3) الكامل في التاريخ (544/8).
(4) الجهاد والتجديد ص 119.
(5) الكامل في التاريخ 552/08) سير أعلام النبلاء (315/19).
(6) النجوم الزاهرة (205/5).

من أيدي الصليبيين [1].

د ـ حملة مودود ضد إمارة بيت المقدس: معركة الضبرة [2] ظل مودود متمسكاً بفكرة جهاد الصليبيين وهي المهمة التي عهد إليه بها السلطان محمد السلجوقي، بوصفه ممثله في إقليم الجزيرة وبلاد الشام، فتحرك في مطلع عام 507هـ/شهر حزيران عام 1113م على رأس تحالف إسلامي لقتال الصليبيين في بيت المقدس بناءً على استنجاد طغتكين أتابك دمشق به، بعد أن تعرضت إمارته لهجمات شديدة من صليبيين بيت المقدس، الذين نفذوا من وادي التيم إلى البقاع، ووصلوا إلى بعلبك، وانضم: تميرك صاحب سنجار، وأياز بن إيلغازي، وأباز بن إيلغازي أمير ماردين إلى هذا التحالف [3] وكان هدف المسلمين منطقة فلسطين. فنجحوا في استدراج الملك بلدوين إلى أراضي دمشق حتى جسر الصبرة، الواقع في المجرى الأعلى لنهر الأردن وفي الثالث عشر من شهر محرم حدث اللقاء الذي انتهى بانتصار المسلمين، ونزلت بالصليبيين هزيمة ساحقة، فارتد ملك بيت المقدس إلى طبرية [4]، ولم يلبث أن وصل لنجدته روجر أمير أنطاكية، وبونز أمير طرابلس، في حين لم يستطع أمير الرها الحضور لأن إمارته كانت بحاجة إلى حماية دائمة [5]، ومضى المسلمون في زحفهم، بعد المعركة، حتى بلغوا طبرية، غير أنهم لم يغامروا فقرروا الانسحاب إلى دمشق [6]. وكان ذلك أول مرة تتعاون الموصل ودمشق في حرب الصليبيين في مملكة بيت المقدس وتكمن أهمية الأتابك مودود في أنه: أعاد للمسلمين الثقة بأنفسهم، فتحولوا من الدفاع إلى الهجوم في علاقاتهم مع الصليبيين وبلور فكرة الاتحاد بين المسلمين، وأعطاها بُعداً سياسياً وعسكرياً، فأضحى أمراؤهم على استعداد للتعاون المثمر بنوايا صادقة [7].

هـ ـ مقتل مودود: سيَّر مودود وحليفه رسولا إلى السلطان السلجوقي في أصفهان يبشرانه بما تمّ على أيديهما من فتح وبعثوا مع الرسول بعض ما غنموه، وعدداً من أسرى الفرنج ورؤوسهم إلا أن بُعد المسلمين عن بلادهم، وانقطاع الإمداد والتموين عنهم، واشتداد البرد عليهم، اضطرهم إلى وقف عملياتهم في المنطقة والعودة إلى دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الأول على أمل الرجوع ثانية لقتال الصليبيين عند حلول الربيع، وبعد أن يتلقى مودود جواب السلطان على رسالته، والتعليمات التي سيصدرها بهذا الصدد [8]ودخل جامع دمشق يوم الجمعة في ربيع الأول، ليصلي فيه، وطغتكين، فلما فرغوا من الصلاة وخرج إلى صحن الجامع ويده في يد طغتكين، وثب عليه باطني فضربه فجرحه أربع جراحات وقتل الباطني، وأخذ رأسه، فلم يعرفه أحد فأحرق، وكان

(1) تاريخ الزنكيين عن الموصل وبلاد الشام ص 76.
(2) الضبرة: موضع بالأردن مقابل لعقبة. أفيق، بينه وبين طبرية ثلاثة أميال.
(3) الكامل في التاريخ (550/8).
(4) المصدر نفسه (550/8).
(5) ذيل تاريخ دمشق ص 294 - 297.
(6) المصدر نفسه ص 297.
(7) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 77.
(8) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 122.

مودود صائماً، فحمل إلى دار طغتكين، واجتهد به ليفطر فلم يفعل وقال: لا لقيت الله إلا صائماً، فمات من يومه رحمه الله [1]، وتأثر المسلمون لمصرع بطل من أبطال الجهاد، اشتهر بإخلاصه وتفانيه وجرأته، وحزنوا عليه حزناً عميقاً لاختفائه السريع، بعد الانتصار العظيم الذي حققه مع حليفه في قلب البلاد الصليبية، وبعد الخطط التي كان على اعتزام تنفيذها هناك؛ وقد عبرت جماهير دمشق عن حزنها وغضبها، حيث شهدت المدينة اضطرابا لم تشهد له مثيلاً منُذ فترات بعيدة، ولم يهدئ من روع الناس سوى أملهم بنجاة القائد من الجراح التي أثخنته، لكنهم ما أن سمعوا نبأ استشهاده بعد ساعات قلائل، حتى عادوا - ثانية - إلى ما كانوا عليه[2]، وكتب ملك الفرنج في بيت المقدس كتاباً إلى طغتكين جاء فيه: إن أمة قتلت عميدها، يوم عيدها، في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها [3]!! غير أن ملك الفرنج وغيره من أمراء الصليبيين تجاهلوا أو تعمدو التجاهل آنذاك، إن ما هو أكثر عوناً لهم وأشد خطراً على كل محاولة إسلامية لقتالهم، ليست هي الأمة التي ظنوا أنها قتلت عميدها في بيت معبودها. فقد عرفنا موقف هذه الأمة من مقتل بطلها المجاهد، إنما هي تلك الفرقة الباطنية - الرافضة - التي قامت على مذهب جديد، شديد الميل إلى التدمير كان قد أنشأة في بلاد فارس، شخص يدعى الحسن بن الصباح وقد تحدثنا عنه وقد دعمته الدولة الفاطمية الرافضية الباطنية ولم تكن كراهية الحشاشين هؤلاء للمسيحيين تزيد على بغضهم للمسلمين السنيين[4]، وما نشاهده اليوم خير دليل على ذلك.

و - هل يصح اتهام طغتكين حاكم دمشق بقتل مودود؟ وبعد استشهاد مودود انتشرت شائعات تقول: إن طغتكين هو الذي حرض على قتل مودود لحرصه على الاحتفاظ باستقلاله في دمشق، ولما ساوره من القلق على بقاء القائد العام لجند السلطان في دمشق، وما يترتب على ذلك من تهديد لاستقلاله[5]، ولم يحد من هذه الشائعات قيام طغتكين بقتل الجاني تبرئة لنفسه، إذ اعتبره الرأي العام هو الجاني، غير أنهم التمسوا له العذر بما دبره مودود من خطط للاستيلاء على دمشق [6]، إلاَّ أن كلاً من ابن القلانسي، وسبط ابن الجوزي - اللذين يميلان بعض الميل لأتابكة دمشق - ينفيان هذه التهمة عن طغتكين أشد النفي، فيقول أولهما: فقلق أتابك طغتكين لوفاته على هذه القضية وتزايد حزنه وأسفه، وكذلك سائر الأجناد والرعية [7]، ويقول ثانيهما: وقلق طغتكين لوفاة مودود على هذا الشكل وحزن حزناً شديداً وكذا سائر الناس وذكر بعضهم أن طغتكين خاف منه فوضع عليه من قتله، وليس بصحيح، فإن طغتكين كان أحب الناس إليه، وحزن عليه حزناً لم يحزنه على أحد، وشقَّ

(1) الكامل في التاريخ (551/8).
(2) تاريخ دمشق لابن القلانسي ص 187 - 188.
(3) الكامل فيالتاريخ (551/8).
(4) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 124.
(5) آل سلجوق لأصفهاني ص 158 - 159.
(6) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 122.
(7) تاريخ دمشق ص 187 - 188.

ثوبه عليه، وجلس في عزائه سبعة أيام، وتصدَّق عنه بمال جزيل[1].

وقد رجح الدكتور عماد الدين خليل رواية المذكورين؛ لأنهما من سكان الشام وبسب قربهما الزمني، أو المكاني من الأحداث المذكورة واطلاعهما الشامل على دقائق العصر الذي يتكلمان عنه، وقال عن روايات ابن الأثير والذين نقلوا عنه والمؤرخين الغربيين فلا تعدو أن تكون استنتاجاً وتخميناً، لاسيما وأن هذه ليست أول ولا آخر مرة يتصدَّى فيها الباطنية لاغتيال زعماء الجهاد الإسلامي؛ فضلاً عن أن انتصار مودود وحليفه في فلسطين يعود بالنفع على إمارة دمشق قبل غيرها، بما يحدثه في صفوف قوات بيت المقدس من إرباك وبما يقدمه لأتابكية دمشق وأراضيها من حماية [2]، وإلى ماذهب إليه الدكتور عماد الدين خليل أميل ودافع الدكتور السيد عبد العزيز سالم وابنته الدكتورة سحر عبد العزيز دفاعاً مستميتاً عن براءة طغتكين في كتابهما تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي [3]. ولقد كان ظهير الدين طغتكين من أمراء السلطان تتش بن ألب أرسلان السلجوقي الذي زوجه بأم ولده دُقاق، وبعد مقتل تتش تولى ابنه دقاق، وصار طغتكين مقدم عسكره، ثم تملك بعد دقاق، وكان شهماً شجاعاً مهيباً مجاهداً في الفرنج، مؤثراً للعدل[4]. ولولا أن الله أقام طغتكين للإسلام بإزاء الفرنج، [5] لكانوا غلبوا على دمشق، فقد هزمهم غير مرة، وأنجده عسكر الموصل مع مودود، ومع البرسقي، وكان قد سار إلى بغداد في خدمة السلطان محمد بن ملكشاه، فبالغ في احترامه[6]، ولقد واجه طغتكين الصليبيين للدفاع عن إمارته أكثر من مرة، ونازلهم في أكثر من موقع، فقد استرد بصرى وصرخد/ 498هـ وحاصر حصن (علعال) قرب طبرية وهدمه وقتل حاميته / 499هـ وخرج إلى طبرية وأسر صاحبها، وقتله في دمشق/500هـ [7]، وانضم عام 506هـ إلى قوات شرق الدولة مودود صاحب الموصل، فحققا نصراً في طبرية، عام 507، إلا أن مقتل مودود في دمشق، أثار السلطان محمد بن ملكشاه عليه.. ولذلك بدأ طغتكين يتحالف مع الصليبيين للوقوف في وجه القوات التي أرسلها السلطان محمد إليه سنة 508هـ، بقيادة برسق صاحب همذان [8]، ثم عقد هدنة مع ملك بيت المقدس - بلدوين الأول - بسبب نزاعه مع جيرانه المسلمين في وقت كان ملك بيت المقدس لا يرجو أكثر من مسالمة أهالي دمشق [9]، واتفق الطرفان على عقد هدنة: مدتها بضع سنوات على أن يقتسم الطرفان أرض السواد، بحيث يكون ثلث دخلها للفرنج، والثلث الثاني لسلاجقة الشام، والثلث الأخير للفلاحين المسلمين[10].

---

(1) مرآة الزمان (51/8).
(2) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 123.
(3) تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي ص 473 إلى 475.
(4) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري ص 120.
(5) الجهاد والتجديد في القرس السادس الهجري ص 120.
(6) سير أعلام البنلاء (519/19).
(7) الجهاد والتجديد ص 121 نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(8) الاعتبار لأسامة بن منقد ص 120.
(9) الجهاد والتجديد ص 121.
(10) الكامل في التاريخ (527/8، 528).

ويبدو أن تمسك صاحب دمشق بإمارته، وخوفه من ضياعها، كان هاجساً قوياً دفعه إلى هذه المواقف المتناقضة، وشأنه شأن غيره من أمراء الأقاليم آنذاك [1] وقد وصف الإمام الذهبي سياسته بقوله: وكان طغتكين سيفاً مسلولاً على الفرنج، ولكن له خرمة، من ذلك إيواؤه لبهرام داعي الإسماعيلية في دمشق، بعد أن كان متخفياً، فأكرمه وبالغ في إكرامه اتقاءً لشره، حتى اتبعه الغوغاء والسفهاء، ثم أعطاه قلعة بانياس سنة 520هـ، فعظم الخطب وتوجع أهل الخير، وتستروا من سبّهم لا يستطيعون من السلطان، إلى أن كشف خياناتهم وخيانة الوزير المتواطئ معهم - المزدقاني - ابنه تاج الملوك بوري، فقتل الوزير ووضع جنده السيف في الملاحدة الإسماعيلية، وقتلوا نحواً من ستة آلاف نفس، وذلك في عام 523هـ، إلا أن الرجل له حسنات منها مد العون لزعماء حركة بعث فكرة الجهاد الإسلامي في الجزيرة وشمال الشام وقام بمساعدة الفاطميين وغيرهم من حكام المسلمين في بلاد الشام لوقف الزحف الصليبي على كثير من بلاد الشام وواجه الصليبيين وجها لوجه للدفاع عن أملاكه مستغلاً في ذلك قواته أحيانا أخرى [2]وعلى أية حال فإن ظهير الدين طغتكين لم يعمر طويلاً فقد توفي سنة 522هـ/1128م بعد أن بذل كل ما أمكنه بذله في صد الصليبيين عن دمشق وغيرها من بلاد الشام مع ما كان عليه من حسن السيرة وآثاره العدل في الرعية، بعد أن استخلف على دمشق ابنه تاج الملوك بوري [3] وبالجملة فسيرة الرجل جيدة فقد نجح في المحافظة على دمشق من السقوط بيد الصليبيين، بالإضافة على تكوين جبهة إسلامية متحدة تتكون من الموصل وحلب ودمشق، وذلك بما أبداه من تعاون صادق مع أولئك الرجال للوقوف صفاً واحداً في وجه الصليبيين، مما ساعد على بلورة فكر الجهاد الإسلامي وتوحيد الجبهة الإسلامية في أذهان بعض قادة المسلمين وعلى رأسهم عماد الدين زنكي [4].

وقال ابن الجوزي متحدثاً عن طغتكين بأنه: كان شهماً عادلاً حزن عليه أهل دمشق حين وفاته، فلم تبق محلة ولا سوق إلا والمآتم قائم فيه لعدله وحسن سيرته، حكم الشام خمساً وثلاثين سنة ما بين (497 - 522هـ) وسار بسيرته ابنه، فترة ثم تغير وظلم [5].

ز - ما ترتب على حملات بطل الإسلام مودود من نتائج: وعلى الرغم من الإخفاق الذي حل بحملات بطل الإسلام مودود إلا أنها تمخضت عن عدد من النتائج المهمة في مسار تاريخ حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ويمكن إجمالها في الآتي:

- إن إمارة مودود - على قصر مدتها - تعد نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي - الصليبي خلال تلك المرحلة المبكرة، فقد صارت فكرة الجهاد حقيقة واقعة [6]، ووجدت فارسها

(1) الجهاد والتجديد ص 122.
(2) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 166.
(3) النجم الزاهرة (234/5) الجهاد ضد الصليبيين ص 172.
(4) الجهاد ضد الصليبيين ص 172.
(5) سير أعلام النبلاء (519/19 - 520).
(6) شرف الدين مودود ص 150 عبد الغني رمضان.

المخلص الذي حمل لواءها ما يقرب من نصف المدة التي تولى فيها أمر إمارة الموصل[1].

- يمكن اعتبار حملات مودود مقدمة لحملات عماد الدين زنكي مع عدم إغفال الفارق الزمني في صورة الثلاثة عقود الفاصلة بين إنجاز كل منهما والتي أدت إلى سقوط إمارة الرها الصليبية عام 1144م/539هـ حيث إن مودوداً وجه حملاته الأولى إلى الرها وتل باشر، وعمل على إرهاق أهلها على نحو نصفه بأنه المقدمة الأولى لجهود زنكي ضدها، على اعتبار أن قافلة الجهاد متصلة قائداً من بعد قائد.

- كشفت حملات مودود عن الضعف الذي كانت عليه القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة وعدم إخلاص بعضها لقضية الجهاد ضد الغزاة الصليبيين [2].

وعلى الرغم من الدور الرائد الذي قام به مودود؛ إلا أننا نجد البعض يرى أن عماد الدين زنكي هو الذي وضع أساس حركة الجهاد ضد الصليبيين [3]، وفي هذا إجحاف بدور تلك القيادة السلجوقية وواقع الأمر: إن المؤرخين الذين أرخوا لتلك المرحلة من تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي انبهروا لحجم الإنجاز الكبير الذي قام به عماد الدين زنكي من حيث إسقاط أول إمارة صليبية أقيمت في المنطقة، فتصوروا أن المراحل السابقة عليه ليست ذات قيمة كبيرة على الرغم من أنها كانت الممهدة الحقيقية لإنجاز عام 1144م/539هـ لا تغفل أيضاً أن الدعاية السياسية الناجحة والفعالة التي قدمها المؤرخ العراقي الفذ ابن الأثير من خلال كتابه الباهر لمؤسس البيت الزنكي قد جعلت المؤرخين يتأثرون بها بصورة أو بأخرى، على نحو جعل سابقي عماد الدين زنكي في مثل ذلك - الموقف - من حيث تقويم دورهم التاريخي، ويكفي مودود فخراً أنه نجح في ضرب الوجود الصليبي في الجليل، وهي منطقة لم تصل إليها فعاليات المسلمين مُنذ قرابة عقدين من الزمان، ويكفيه أنه ألحق الهزيمة بمؤسس مملكة بيت المقدس الصليبية، ونستطيع أن نصل إلى رؤية محددة من خلال أن قادة الجهاد الإسلامي كل يكمل الآخر، ولا خصومة بينهم، وما قام به مودود أفاد - فما بعد - القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي؛ ولذا فبالإمكان القول؛ اليوم الصنبرة وغداً حطين؛ وهذا ما أثبته السياق العام لتاريخ تلك المنطقة في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي [4] وعلى أية حالة عند مقارنة جهد مودود بسابقيه في صورة كربوغا، وجكرمش، وجاولي سقاوة سيتضح لنا أنها أدوار متدرجة ومتصارعة، فكربوغا انحصر أمره في نجدة أنطاكية وجكرمش زاد الأمر من خلال تحالفه مع سقمان بن أرتق على نحو أدى إلى الانتصار في معركة حران 498هـ/1104م.

أما مودود فإن دوره أكثر تعاظماً على نحو أدى إلى هزيمة الصليبيين في معركة الصنبرة عام 507هـ/1113م، وهو أمر يثبت لنا أنه خلال نحو تسعة أعوام فقط تم إلحاق هزيمتين كبيرتين بالصليبيين، غير أن العقبة القائمة تمثلت في عدم الإفادة من كل من الانتصارين في اجتياح مناطق

(1) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص 156.
(2) المصدر نفسه ص 156.
(3) المصدر نفسه ص 157.
(4) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 157.

الأعداء، وتحقيق انتصار سريع خاطف يصعب على الصليبيين تعويض خسائرهم من جرائه غير أن بقايا ظاهرة التشرذم السياسي، والتباغض بين القيادات الإسلامية كان عائقاً دون تحقيق ذلك [1].

6 - نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين: ارتبطت حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ارتباطاً شديداً بزعماء الموصل الذين كانوا تحت طاعة السلاجقة وأدت وفاة السلطان محمد بن ملكشاه سنة 512هـ/1117م إلى ازدياد تدهور أحوال السلاجقة في العراق، فسعى السلطان محمود بن محمد ملكشاه إلى استدعاء آقسنقر من الموصل لتوليته شحنكية بغداد [2] الأمر الذي أفقد الموصل مكانتها القيادية في بعث حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين مؤقتاً، وانتقال هذه القيادة إلى نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين، واستهل إيلغازي أعماله بالاستيلاء على حلب سنة 511هـ/1117م؛ لأهميتها بالنسبة لأية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمجابهة الصليبيين وذلك لما كانت تتمتع به من مركز إستراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية، وكانت حلب تقع بين إمارتين صليبيتين هما الرها وأنطاكية، وفي نفس الوقت يمكنها الاتصال بالقوى الإسلامية التركمانية المنتشرة في منطقة الجزيرة؛ لذا كان الاستيلاء عليها بمثابة فتح الطريق لقيادة حركة الجهاد، وذلك ما حدث فعلاً بالنسبة لنجم الدين إيلغازي وابن أخيه بلك بن بهرام ومن بعدهما آقسنقر البرسقي وعماد الدين زنكي ونور الدين محمود فيما بعد [3]. وأما عن تفاصيل استيلاء نجم الدين إيلغازي على حلب سنة 511هـ/1117م فقد تجدد بها من الحوادث ما أطمع الصليبيين في الاستيلاء عليها حيث بلغت حدًّا من الضعف والضائقة الاقتصادية مما أعجز أهلها عن تقديم القوت لدوابهم ولكن خوف أهلها من أن تسقط بيد الصليبيين قد أخبرهم على استدعاء نجم الدين إيلغازي وتسليمه حلب في السنة المذكورة، واستهل إيلغازي أعماله بحلب بفرض سيطرته على بعض المواقع التابعة لها كبالس، ومصادرة بعض رجال حلب للحصول منهم على مال يهادن به الصليبيين، فاستوحش منه أهل حلب وجندها - على حد قول ابن العديم - مما اضطره إلى مغادرتها إلى ماردين بعد أن استخلف في بالس موجة الغلاء التي مروا بها في نفس السنة 511هـ/1117م، فأرسلوا إلى الصليبيين يسلموها إليهم فاضطر إيلغازي إلى العودة على رأس قوة من التركمان إلى حلب، فلما شعر الصليبيون بالخطر، انسحبوا عنها فتسلمها إيلغازي للمرة الثانية، وعاد إلى ماردين بعد أن عقد معهم هدنة بعدم اعتداء أي منهما على ممتلكات الطرف الآخر [4].

- نقض الصليبين للهدنة: ولكن الصليبيين وجدوا الفرصة سانحة بعد خروج إيلغازي وأغاروا على عزاز وشددوا الحصار عليها حتى اضطر من بها من المسلمين إلى التسليم، واضطر أهل حلب إلى مراسلة الصليبيين وطلبوا منهم التمسك بالهدنة التي كان قد عقدها معهم إيلغازي وأن يسلموهم أي أهل حلب تل هراق ويؤدون لهم القطيعة المقررة على حلب عن أربعة أشهر ومقدارها

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 158.
(2) الوافي بالوفيات (310/9) النجوم الزاهرة (214/5).
(3) الإمارات الأرتقية في بلاد الشام والجزيرة ص 234 - 235.
(4) زبدة الحلب (180/2) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 152.

ألف دينار ويكون لهم من حلب شمالاً وغرباً [1] وغضب نجم الدين إيلغازي لما وصلت إليه أخبار حلب، ولكنه لم يستطع العودة إليها وإنقاذها مما هي فيه لقلة عساكرها فاتجه إلى شرق منطقة الجزيرة بقصد جمع المعساكر في الوقت الذي أبلغ فيه ظهير الدين طغتكين عن رغبته في الاجتماع به سنة 512هـ/1118م واجتمعا على قلعة دوسر بهدف القيام بدفع الصليبيين عن حلب ولكن ذلك لم يتيسر لهما، الأمر الذي دفع الصليبيين إلى إحكام السيطرة على مداخل حلب بعد أن استولوا على بزاغة فتردت الأحوال بحلب حتى بلغت حد التلف على حد قول ابن العديم [2]، ولم يجد أهل حلب بدا من الاستعانة بالخلافة العباسية والدولة السلجوقية في بغداد، إلا أنهم لم يغاثوا نظراً لانشغال السلاجقة بالمنازعات الأسرية فيما بينهم من جهة وضعف الخلافة العباسية من جهة أخرى.

- **إعلان النفير ضد الصليبيين:** لم يتيسر لنجم الدين إيلغازي لقاء الصليبيين فقد فارق طغتكين وعاد إلى ماردين بجمع العساكر تمهيداً للعودة للجهاد والالتقاء مع الصليبيين في معركة حاسمة [3] وفي ماردين حشد نجم الدين إيلغازي ما يزيد على عشرين ألفاً من التركمان[4]. بقصد قتال الصليبيين الذين ضيقوا على حلب حتى كادت أن تعدم القوت. وأرسل إيلغازي رسله إلى بغداد لإعلان النفير ضد الصليبيين وإعلام الخليفة العباسي المسترشد بالله والسلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه بما فعله الصليبيون بالديار الجزرية وأنهم ملكوا قلعة عند الرها وقتلوا صاحبها بن عطير [5]وكان نجم الدين إيلغازي قد تواعد مع ظهير الدين طغتكين في سنة 512هـ/1118م على ملاقاة الصليبيين في شهر صفر من السنة التالية 513هـ/1119م بالشام. وتوجه إيلغازي قبل الموعد المحدد إلى الرها وشدد عليها الحصار، مما اضطر من بها من الصليبيين إلى مصالحته، لقاء تنازلهم عن الأسرى المسلمين الموجودين بها فأجابهم إيلغازي وشرط عليهم عدم التوجه لمساعدة أمير أنطاكية في حالة حدوث قتال معه فأجابوه وقد كانت هذه خطوة صائبة من إيلغازي تمكن بموجبها من عزل إحدى قوى الصليبيين عن مد العون للقوى الأخرى وهذا دليل واضح على رضوخ الصليبيين في منطقة الجزيرة إلى مطالب الأمراء المسلمين[6].

- **معركة ساحة الدم:** وبعد أن اطمأن إيلغازي إلى أنه لن يتعرض إلى طعنة الصليبيين من الخلف توجه إلى بلاد الشام وقد انضم إليه أسامه بن المبارك بن شبل الكلابي والأمير طغان أرسلان صاحب بدليس وارزن، وواصل سيره حتى بلغ قريباً من الإثارب بأرض سرمدا في ربيع الأول سنة 513هـ/1119م وهناك انتظر وصول ظهير الدين طغتكين. وكان الصليبيون بقيادة روجر صاحب أنطاكية قد نزلوا بتل عقرين وشرعوا في بناء حصن لهم هناك ولم يدر بخلدهم أن نجم الدين ايلغازي سيباغتهم هناك لضيق الطريق، ثم لتوهمهم أن المسلمين سينالون الإثارب أو زردنا، حتى أن الغرور

(1) زبدة الحلب (2/185 - 186).
(2) زبدة الحلب (2/186).
(3) المصدر نفسه (2/186).
(4) المصدر نفسه (2/186).
(5) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 153.
(6) الإمارات الأرتقية في بلاد الشام والجزيرة، عماد الدين خليل ص 241.

قد أصابهم لاعتقادهم بحصانة موقعهم، فأرسلوا إلى إيلغازي يقولون له: لا تتعب نفسك بالمسير إلينا فنحن واصلون إليك [1]. ولما طال انتظار ايلغازي لوصول حليفه، لبى رغبة الأمراء الذين كانوا معه في التعجيل بمباغتة الصليبيين، فما شعر الصليبيون إلا ورايات المسلمين قد أقبلوا وأحاطوا بهم من كل جانب. وذلك يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول من السنة 513هـ/1119م. وخرج قاضي حلب أبو الفضل بن الخشاب وخطب في المسلمين خطبة بليغة استنهض فيها عزائم المسلمين على الجهاد، فحمل المسلمون على الصليبيين حملة واحدة من جميع الجهات فكانت السهام على الصليبيين كالجراد في الوقت الذي أخذتهم السيوف من سائر نواحيهم، فلم يفلت منهم غير يسير بينما كان الباقون بين قتيل وجريح وكان ضمن القتلى روجر صاحب أنطاكية الذي كان قد تعجل لقاء المسلمين قبل وصول قوات بيت المقدس وطرابلس وغيرها ووقع في الأسر نيفا وسبعين من فرسان الصليبيين ومقدميهم، وحاولوا أن يفتدوا نفوسهم بمبلغ ثلاثمائة ألف دينار فلم يقبل منهم نجم الدين إيلغازي بل أمر بقتلهم جميعاً [2]، وقد عرفت هذه الوقعة عند المؤرخين اللاتينيين، ومن نقل عنهم من المؤرخين المحدثين باسم ساحة الدم لكثرة ما قتل فيها من الصليبيين والتي لم يقتل فيها من المسلمين سوى العدد القليل [3].

- **الأبعاد التي حققها الانتصار على الصليبيين في معركة ساحة الدم:** إن أهمية ما حل بالصليبيين لم يقف عند حد النصر العسكري الذي حققه نجم الدين إيلغازي عليهم، بل تعداه إلى أنه قد صاحب هذا النصر قيام جبهة إسلامية متحدة من الأمراء المسلمين في الشام والجزيرة إضافة إلى أنها جعلت حلب من منأى عن أخطار الصليبيين خصوصاً بعد استيلاء نجم الدين إيلغازي على حصن قريب من الإثارب في السنة نفسها فضلا عن أنها كانت كارثة فادحة حرمت أنطاكية من زعيمها روجر مما جعل السريان والأرمن بأنطاكية يتشككون في موقعهم إلى جانب الصليبيين وهذا على ما يبدو ما دفعهم إلى التآمر للخلاص من الصليبيين الغربيين فيما بعد [4].

وذكر ابن العديم أن نجم الدين إيلغازي نزل بعد انتهاء المعركة إلى خيمة روجر ليسلم إليه المسلمون الغنائم التي حصلوا عليها ولكنه رد جميع الغنائم للمقاتلين ولم يأخذ منهم إلا سلاحاً يهديه لملوك الإسلام ليبعث في نفوسهم حب الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين[5] واستطاع إيلغازي أن يحقق سلسلة من الانتصارات في شمال الشام هيأت للمسلمين جوًّا من الهدوء والاستقرار. فقد استطاع المسلمون أن يلحقوا بالنجدة الصليبية التي أتت بزعامة بلدوين ملك بيت المقدس لنجدة روجر صاحب أنطاكية هزيمة ساحقة [6]، ولم يكتف نجم الدين إيلغازي بهذا بل اجتمع في أرتاح بحليفه طغتكين واتفقا على مهاجمة الأثارب وزردنا، فاستطاعا الاستيلاء عليهما من الصليبيين، ثم سار

(1) زبدة الحلب (190/2) الجهاد ضد الصليبيين ص 154.
(2) الجهاد ضد الصليبيين ص 154 نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(3) الشرق الأوسط والحروب الصليبية (473/1) الإمارات الأرتقية ص 242.
(4) الاعتبار ص 40، 41، الحركة الصليبية (492/1).
(5) زبدة الحلب (190/2) الجهاد ضد الصليبيين ص 155.
(6) الجهاد ضد الصليبيين 155.

إيلغازي إلى دانيث بنفر قليل من المسلمين والتقى ببلدوين ملك بيت المقدس وروبرت صاحب زردنا ودارت بين الطرفين معركة في جمادي الأولى من السنة 513هـ/1119م أسفرت عن انتصار نجم الدين إيلغازي وهزيمة الصليبيين الذين احتموا بحصن هاب بعد مطاردة نجم الدين لهم [1]. ثم عاد نجم الدين إيلغازي إلى حلب بينما التقى رجاله في طريق عودتهم بصاحب زردنا روبرت الأبرص وبصبحته قوة إيلغازي مما اضطر من سلم من الصليبيين إلى العودة إلى حصن هاب بعد مطاردة نجم الدين لهم[2]. ثم عاد نجم الدين ايلغازي إلى حلب بينما رجاله في طريق عودتهم بصاحب زردنا روبرت الأبرص وبصحبته قوة من الصليبيين فهاجمتهم قوة إيلغازي مما اضطر من سلم من الصليبيين إلى العودة إلى حصن هاب، في الوقت الذين وقع فيه الأبرص أسيراً في أيدي المسلمين فحملوه إلى إيلغازي بحلب، وأنفذه بدوره إلى طغتكين بدمشق حيث قلته صبرا [3].

وفي أواخر جمادي الأولى سنة 513هـ/1119م غادر إيلغازي حلب إلى ماردين بسبب الضائقة المالية التي مر بها إضافة إلى أن حلب كانت من الضعف بحيث جعلته لا يستطيع البقاء فيها[4].

- **حصار أنطاكية وعقد الهدنه مع ملك بيت المقدس:** وبالرغم من انشغال نجم الدين إيلغازي ببعض الأمور الإدارية في ماردين، فقد جمع جيشاً من التركمان عبر بهم الفرات إلى بلاد الشام في سنة 514هـ/1120م واجتمع بطغتكين وسارا إلى أنطاكية حيث ضرب عليها حصاراً، فلم يتمكنا منها، فدخلا إلى قنسرين، وحاصراها يوماً وليلة، ولم ينالا منها شيئاً، وعندها أشار ظهير الدين طغتكين على صاحبه برفع الحصار عنها وأن يعود كل منهما إلى بلده، فقبل نجم الدين ايلغازي مشورة صاحبه، وتفرق عساكره من التركمان واضطر إيلغازي إلى عقد هدنة مع ملك بيت المقدس بلدوين الثاني على أن يكون للصليبيين المعرة وكفر طاب والبارة وضياع من جبل السماق، وعلى أن يكون أمد هذه الهدنة نهاية السنة [5].

- **نقض الهدنة:** لم يتقيد الصليبيون بهذه المعاهدة، فقد أغار جوسلين صاحب تل باشر في السنة نفسها 514هـ/1120م على بعض البلاد التابعة لحلب، مما اضطر أهل حلب إلى إرسال احتجاج شديد اللهجة إلى بلدوين الثاني ملك بيت المقدس يخبرونه فيه باعتداءات جوسلين على المسلمين، ولكنه رد عليهم بقوله: ما لي على جوسلين يد [6]. ولم يقف الصليبيون عند هذا الحد بل أغار الصليبيون بأنطاكية على بلد شيزر وأسروا جماعة من المسلمين وطالبوا أمير شيزر العربي أبو العساكر سلطان بن منقذ ببعض المطالب التعسفية مما اضطره إلى مصالحتهم على مال يدفعه إليهم[7]. وبالإضافة إلى ذلك فقد استغل الصليبيون فرصة خلو حلب من ايلغازي فشنوا في صفر من

(1) زبدة الحلب (190/2) الجهاد ضد الصليبيين ص 156.
(2) زبدة الحلب (190/2).
(3) تاريخ الحروب الصليبيين ص 156.
(4) الجهاد ضد الصليبيين ص 156.
(5) المصدر نفسه ص 156.
(6) المصدر نفسه ص 156، 157.
(7) المصدر نفسه ص 157.

سنة 515هـ/1121م هجوماً على الأثارب وأغار على حلب نفسها، وفرض عليها حصاراً شديداً أدى إلى وقوع خمسين أسيراً من أهلها في يده ونجح الحلبيون في استنقاذ إخوانهم وأجبروه على التراجع عنها إلى أنطاكية [1] وعلى ما يبدو فإن نجم الدين إيلغازي قد اضطر إلى البقاء في ماردين بعض الوقت مما دعاه إلى مراسلة ولده سليمان بن إيلغازي النائب عنه في حلب يأمره بعقد صلح مع الصليبيين، حصل الصليبيون بموجبه على سرمين وبلدة ليلون وبعض الجهات الزراعية المحيطة بحلب، والأثارب [2].

- **تمرد سليمان بن إيلغازي على أبيه:** وعلى الرغم من أن الصلح الذي عقده سليمان بن إيلغازي لم يكن في صالحه فإن سليمان بن إيلغازي لم يسع إلى علاج ما استجد بحلب من الفوضى والاضطراب، بل أعلن عصيانه على والده وأعلن استقلاله بحلب، وقد شجعت هذه الخطوة من قبل سليمان بن إيلغازي الصليبيين على مضايقة حلب والاستيلاء على بعض المواقع المحيطة بها في جمادي الآخرة من سنة 515هـ/1121م، ومطالبة صاحبها سليمان بالتنازل عن الأثارب لبلدوين الثاني ملك بيت المقدس، ولكن سكان الأثارب من المسلمين رفضوا الخضوع للصليبيين الأمر الذي أجبر بلدوين على التراجع إلى أنطاكية ومنها إلى بيت المقدس [3].

- **القضاء على التمرد:** وأما نجم الدين إيلغازي، فإنه ما أن سمع بعصيان ابنه بحلب حتى قدم إليها على وجه السرعة، فعاقب من كان وراء عصيان ابنه، فلما رأى سليمان ما حل بأعوانه، من عقاب شديد خاف على نفسه وهرب إلى دمشق وطلب من صاحبها طغتكين حق اللجوء، ولما تم لإيلغازي القضاء على الفتنة بحلب استناب بها ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، وعقد هدنة جديدة مع الصليبيين لمدة سنة كاملة، وكان هدف إيلغازي من عقد تلك الهدنة مع الصليبيين هو كسب الوقت حتى يتمكن من العودة إلى ديار بكر وحشد ما يمكن حشده من قوات ليعيد الكرة على الصليبيين، إضافة إلى خوفه من قيام الصليبيين بغارة على حلب فلا يستطيع ابن أخيه صدهم[4]، وفي ماردين استطاع نجم الدين إيلغازي أن يحشد أكبر عدد من التركمان، ثم سار بهم إلى بلاد الشام في شهر ربيع الآخر سنة 516هـ/1122م، مستغلاً في ذلك الشقاق الذي حصل بين بلدوين ملك بيت المقدس ويونز صاحب طرابلس، ولكن نجم الدين إيلغازي لم يستطع أن يحقق نصراً حاسماً على الصليبيين، وبالرغم من انضمام بلك بن بهرام بن أرتق وظهير الدين طغتكين إلى جانبه غير أنه لم يمكن الصليبيين بأن يمدوا نفوذهم وسيطرتهم على حلب [5].

- **وفاة إيلغازي وأثر ذلك على المسلمين:** في شهر رمضان من سنة 516هـ/1122م أحس إيلغازي بتدهور صحته فعاد إلى ميافارقين حيث وافته منيته هناك، وبقدر ما كانت وفاة نجم الدين

(1) زبدة الحلب (199/2) الجهاد ضد الصليبيين ص 157.
(2) زبدة الحلب (199/2 - 205) الجهاد ضد الصليبيين ص 157.
(3) زبدة حلب (199/2) الجهاد ضد الصليبيين ص 157.
(4) الإمارات الارتقية ص 260.
(5) زبدة الحلب (205/2) الجهاد ضد الصليبيين ص 158.

إيلغازي خسارة فادحة للمسلمين في بلاد الشام والجزيرة عامة فإن المصيبة كانت أعظم على أهل حلب الذين عظمت عليهم وفاته؛ لأن نجم الدين إيلغازي كان قد قطع أمل زعماء الصليبيين في الاستيلاء عليها، ولم تقف أهمية وفاة نجم الدين إيلغازي إلى هذا الحد، بل أدت إلى أن إمارته قد تفككت وقسمت بين أولاده حسام الدين تمرتاش الذي حصل على ماردين، وابنه سليمان الذي حصل على ميافارقين، بينما بقيت حلب من نصيب ابن أخيه سليمان بن عبد الجبار بن ارتق، واحتفظ بلك بن بهرام بن أرتق بقلعة خرتبرت وضم إليها حران فيما بعد [1].

ويضاف إلى ذلك أن حلب التي كانت تعتمد على عساكر التركمان الذين كان يحشدهم إيلغازي من شمال الجزيرة قد افتقرت هذا العنصر البشري الذي رجح كفة المسلمين على الصليبيين في عهد ايلغازي مما جعلها عرضة لغارات الصليبيين، وضعف مركز صاحبها سليمان بن عبد الجبار بن أرتق عن دفع الصليبيين الذين استغلوا وفاة نجم الدين وأغاروا بقيادة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس على بزاعة وبالس على نهر الفرات، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل استطاع الملك الصليبي الاستيلاء على قلعة البيرة، حتى أصبحت حلب محاطة بالصليبيين من جميع الجهات، مما حتم على سليمان بن عبد الجبار أن يعقد مع الصليبيين صلحاً سنة 517هـ/1123م تنازل بموجبه لهم عن حصن الأثارب[2].

7 - بلك بن بهرام بن ارتق: يأسر ملوك الصليبيين: بلك بن بهرام صاحب قلعة (خرتبرت) استلم راية الجهاد بعد عمه "إيليغازي - صاحب ماردين" كان خصماً عنيداً للصليبيين وكان يتطلع للقضاء عليهم لا في منطقة الجزيرة فقط بل وفي بلاد الشام وقد استهل أعماله العسكرية أثناء مرض عمه نجم الدين ايلغازي في رجب سنة 516هـ/1122م بحصار الرها، ولكنه لم يستطع النيل منها بعد فترة طويلة من الحصار، مما اضطره إلى الانسحاب عنها؛ لذا رأى الصليبيون الذين بالرها أنه لا بد من الاستعانة بجوسلين صاحب الأطماع الكثيرة وخصم المسلمين العنيد، الذي كان وقتذاك مع بلدوين ملك بيت المقدس بالبيرة مستغلين في ذلك تفرق عساكر بلك بن بهرام بن ارتق عقب عودته من الرها، إلا أن بلك بن بهرام استطاع أن ينصب لجوسلين ومن معه من الصليبيين كميناً عند سروج بأرض موحلة ومشبع بمياه الأمطار فلم تتمكن خيولهم من الإسراع بسبب هذا الوحل، في الوقت الذي سلط عليهم بلك ورجاله الذين لا يتجاوز عددهم أربعمائة فارس وابلاً من السهام فلم يفلت منهم إلا القليل، وأسر جوسلين وابن خالته جاليران صاحب البيرة في سنة 516هـ/1122م. وقد ترتب على هذا الانتصار الذي حققه بلك بن بهرام على الصليبيين ضياع قوة الصليبيين المعنوية في بلاد الشام وازدياد حماسة المسلمين وتطلعهم إلى الوثوب على الصليبيين من كل ناحية [3]، وحاول بلك بن بهرام بن ارتق أن يحصل من جوسلين ومن معه من الصليبيين الذين وقعوا في الأسر على تنازل منهم عن الرها، مقابل اطلاق سراحهم ولكنهم رفضوا قائلين: نحن

(1) الشرق الأوسط والحروب الصليبية (480/1 - 481) للعريني.
(2) الكامل في التاريخ (632/8).
(3) نور الدين محمود والصليبيون حسن حبشي ص 20.

والبلاد كالجمال، متى عقر جمل حول رحله إلى آخر والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا [1] عندها حمل بلك بن بهرام أسراه إلى قلعة خرتبرت ووكل بهم من يحرسهم وتوجه سنة 517هـ/1123م إلى حصن كركر التابع لإمارة الرها بقصد الاستيلاء عليه [2].

وأدرك بلدوين ملك بيت المقدس الذي أصبح وصياً على الرها مضافاً إلى وصايته على أنطاكية أن من واجبه التحرك لتخليص جوسلين من الأسر ومنع كركر من السقوط بيد بلك بن بهرام وأفهام المسلمين بأن قوة الصليبيين لا زالت قوية باطشة وخرج بلدوين على رأس جيشه حتى وصل عند الضفة الشرقية لنهر سنجه أحد روافد الفرات تجاه معسكر بلك بن بهرام الذي كان قد رفع الحصار عن كركر وعاد لمواجهة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، ودار القتال بين الطرفين في التاسع عشر من شهر صفر سنة 517هـ/1123م، وانهزم الصليبيون بالرغم من قلة قوات المسلمين، ولم تقف أهمية الوقعة عند حد انتصار بلك بن بهرام بل تعدته إلى أن بلدوين ملك بيت المقدس قد وقع في أسر بلك في بن بهرام بالإضافة إلى استيلائه على حصن كركر، وحمل بلك أسيره الجديد إلى خرتبرت وضمه إلى جوسلين ومن معه من زعماء الصليبين وفرسانهم[3]. وهكذا خلت أمارات الصليبيين، الرها، وأنطاكية، ومملكة بيت المقدس من زعمائها الذابين عنها، مما أدى إلى اضطراب وضع الصليبيين في الجزيرة وبلاد الشام ولكن القوى الإسلامية في بلاد الشام لم تستطع وقتذاك أن تهتبل هذه الفرصة والانقضاض على إماراتهم والقضاء على شأفة الصليبيين [4].

- **محاصرة الصليبيين لحلب:** أما بلك بن بهرام بن أرتق فإنه بعد أن جمع أسراه في قلعة خرتبرت توجه إلى حران للاستيلاء عليها في ربيع الأول من سنة 517هـ/1123م، بهدف التقوي بها، فتم له ذلك وكان بلك بن بهرام يطمع في الاستيلاء على حلب من سليمان بن عبد الجبار عقب استيلائه على حران لأنه كان يدرك أهمية حلب الإستراتيجية، وأنه لن يحقق أية نتيجة حاسمة على الصليبيين مالم يضم حلب إلى أمارته كي تكون له قاعدة في بلاد الشام، يستطيع من خلالها التحرك في ميدان فسيح، وليتفرغ لقتال الصليبيين [5]؛ لذلك فرض بلك بن بهرام على حلب الحصار حتى اضطر من بها إلى تسليمها إليه في صباح يوم الثلاثاء غرة جمادى الأولى سنة 517هـ/1123م [6]. إلا أن بلك بن بهرام لم يستطع المضي قدماً في جهاد الصليبيين بالشام حيث وصله نبأ تمكن جوسلين من الفرار من الأسر بمعونة جماعة من الأرمن الذين كان بلك بن بهرام قد أحسن إليهم بخرتبرت، فعاد على وجه السرعة إلى خرتبرت في رجب من نفس السنة 517هـ/1123م واستطاع إعادة الأمن بها ونقل الأسرى المتبقين فيها إلى حران بعد معاقبة الأرمن الذين كانوا بها [7].

---

(1) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 160.
(2) زبدة الحلب (206/2) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 160.
(3) نور الدين محمود والصليبيين ص 20.
(4) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 160.
(5) الامارات الارتقية ص 268.
(6) الكامل في التاريخ (632/8، 633)
(7) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 161.

وأما جوسلين صاحب الرها الذي هرب من الأسر فقد استطاع تكوين جيش من صليبيين بيت المقدس وأنطاكية، واتجه به صوب حلب وضيق على من بها من المسلمين، ولم يكتف بهذا، بل أقدم على نبش قبور الموتى من المسلمين في البلاد المحيطة بها وظل محاصراً لها حتى شهر رمضان من السنة نفسها 517هـ/1123م ولما لم يستطع النيل منها عاد إلى تل باشر، على أن حلب لم تسلم من حصار الصليبيين بعد عودة جوسلين إلى تل باشر، بل تعرضت لحصار آخر من صليبيين أنطاكية، أدى إلى قطع الصلة بينهما وبين غيرها من البلاد الإسلامية في الشام، تلك البلاد التي كانت تزودها بالمؤن[1]. وجد بلك بهرام بن أرتق إنه لابد من الاستعانة بآقسنقر البرسقي صاحب الموصل وبظهير الدين طغتكين صاحب دمشق لرفع الظلم عن أهل حلب ولإنزال ضربة بالصليبيين يستطيع بعدها بلك بن بهرام العودة إلى حلب وإقرار الأوضاع بها، فوصل إليه سنة 517هـ/1123م كل من صاحب الموصل آقسنقر البرسقي وصاحب دمشق طغتكين على رأس قوتهما فعبر بهم الفرات ونزلوا على عزاز، ولكن الصليبيين الذين كانوا قد تجمعوا بها تمكنوا من طرد المسلمين، فعاد كل منهم إلى بلده، ودخل بلك بن بهرام حلب في سنة 518هـ/1124م وتخلص من بعض المناوئين له وقضى على فوضى قطاع الطرق، وتزوج باحدى بنات رضوان بن تتش لتوثيق صلته بالسلاجقة، واتخذ من حلب عاصمة له من بلاد الشام، وقاعدة انطلاق لتوجيه الضربات ضد الصليبيين ولم يكتف بهذا بل نقل إليها أسراه من حران واعتقلهم في قلعة حلب ويبدو أن ما قام به بلك بن بهرام من نقل أسراه إلى حلب إنما كان بقصد الاطمئنان عليهم من أية محاولة لإنقاذهم أثناء بعده عنهم، والدليل على ذلك أنه حين جهز فرقة عسكرية في صفر من سنة 518هـ /1124م لقتال الصليبيين بعزاز، لم يخرج معهم خوفاً من أن يغدر به بعض سكان حلب المعارضين له ويطلقوا سراح أسراه[2].

- **مقتل بلك بن بهرام:** لم يمهل الأجل بلك بن بهرام وبينما كان يحاصر الفرنجة عند قلعة منبج وافته المنية بسهم طائش أصابه فقتله لا يدري من رماه، واضطرب عسكره، وتفرقوا، وبمقتله فقد المسلمون فيه رجلاً أثبتت أعماله إنه زعيم وقائد حاول جمع كلمة المسلمين في الشام والجزيرة ضد الصليبيين، ويمكن القول إنه بمقتل بلك بن بهرام سنة 518هـ/1124م انتهت مرحلة قيادة الأراتقة لحركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، على الرغم من أن حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي قد استطاع الاستيلاء على حلب عقب مقتل بلك بن بهرام إلا أن حلب لم تتمتع في أيامه بأوضاع مستقرة، بل فسدت أحوالها وضعف أمر المسلمين بها حيث الهاه الصبى واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك ولم يقف حسام الدين عند هذا الحد من الخمول وعدم المبالاة بجهاد الصليبيين، بل قبل وساطة أبي العساكر سلطان بن منقذ صاحب شيزر في إطلاق سراح بلدوين ملك بيت المقدس، الذي كان في أسر بلك بن بهرام[3]، الأمر الذي أدى إلى ازدياد حماس الصليبيين في النيل من المسلمين، وهذا بالطبع كان له أثر كبير في تصدي الصليبيين بصلابة لحركة بعث فكرة

(1) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 161.
(2) زبدة الحلب (216/2 - 217) الجهاد ضد الصليبيين ص 164
(3) الجهاد ضد الصليبيين ص 162، 163.

الجهاد الإسلامي في المرحلة التالية التي قادها كل من آقسنقر البرسقي صاحب الموصل وظهير الدين صاحب دمشق[1].

8 - جهاد أمير الموصل آق سُنقُر البرسقي لإنقاذ حلب:

أ - **حلب تتصدى للصليبيين:** تعرضت حلب لضغط الصليبيين وهجماتهم مراراً عديدة بدأت مع فجر الغزو الصليبي لبلاد الجزيرة والشام وكان أبرزها وأخطرها ولاريب حصار عام 518هـ وقد أدرك هؤلاء الغزاة الأهمية البالغة لهذه المدينة وما كانت تتمع به من مركز إستراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية وخطوط المواصلات، فهي تقع في مركز وسط حصين بين إمارتين صليبيتين، هما: الرها شرقاً في الجزيرة الفراتية، وأنطاكية غرباً على البحر المتوسط في نفس الوقت الذي يمكنها الاتصال بالقوى الإسلامية التركمانية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأناضول وشمالي الشام مما يعد أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد وتحقيق أهداف حاسمة ضد الصليبيين وفي المقابل فإن إسقاط حلب وضمها إلى الكيان الصليبي سوف يؤمن المواصلات بين الرها وأنطاكية، ويعجل إقامة وحدة سياسية وعسكرية بينهما، كانت ستلعب ولا شك دوراً خطيراً لصالح الغزاة[2].

وإذا أدرك الحلبيون عدم جدوى بقاء حلب على هذه الأوضاع القلقة، وضرورة تسليمها لأمير قوي، أرسلوا إلى إيلغازي الأرتقي حاكم ديار بكر يطلبون منه القدوم لتسليمها إياه، فتقدم هذا إلى حلب عام 511هـ، وتولّى مقاليد الأمور فيها، وفرض سيطرته على المواقع التابعة لها، ولكن انشغال الرجل بأمور ولايته في ديار بكر كان يضطره في كثير من الأحيان إلى الغياب عن حلب وإدارة ظهره لمشاكلها، وكان الصليبيون يستغلون ذلك ويشددون هجماتهم على حلب والمناطق المحيطة بها، حتى إذا توفي الرجل في رمضان عام 516هـ سعى الصليبيون لاستغلال الفرصة وانقسام إمارته بين أبنائه وانعزال حلب عن القوى المقاتلة في ديار بكر لتحقيق انتصارات سريعة في شمال الشام، ولكن ظهور ابن أخيه بلك بن بهرام وتوليّه قيادة حركة الجهاد ضد الغزاة؛ قطع الطريق على هؤلاء، وأنقذ حلب من خطر محقق، غير أن مقتل بلك بعد سنتين من توليه الحكم وانتقال إمارته إلى ابن عمه حسام الدين تمرتاش الذي تميز بالضعف والانهزامية، فتح الطريق ثانية أمام الصليبيين؛ لكي يشددوا النكير على حلب ويحققوا حلمهم بالسيطرة عليها.

ويصف المؤرخ ابن العديم كيف تدهورت الأوضاع في حلب إثر تولّي تمرتاش الحكم، ويقول: فأما تمرتاش فإنه لما ملك حلب، ألهاه الصبا واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك، ففسدت الأحوال وضعف أمر المسلمين بذلك[3].

وقد بدأ تمرتاش ولايته بإطلاق سراح بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الذي كان بلك قد أسره في إحدى

---

(1) المصدر نفسه ص 163.

(2) دراسات تاريخية ص 12، 13.

(3) زبدة الحلب (220/2).

معاركه ضد الغزاة، وذلك لقاء مبلغ تافه من المال، وقد أطلقه تمرتاش من معتقله وأحضره إلى مجلسه، فأكلا وتشاربا وخلع عليه تمرتاش قباءً ملكياً، وأعيد إليه الحصان الذي كان قد أخذه منه بلك يوم أسره[1].

ولم يلبث تمرتاش - بعدها - أن انسحب إلى ولايته في ديار بكر لكي يتبع سياسة انعزالية فلا يرمي بسهم ضد الغزاة وبهذا اتيحت لهؤلاء الفرصة - كرة أخرى - لتضييق الخناق على حلب والسعي لتحقيق هدفهم الذي عجزوا عنه في السنين السابقة، وهكذا شهدت حلب في عام 518هـ حصاراً من أخطر ما تعرضت له في تاريخ الحروب الصليبية الطويل[2].

ب - خيانة دبيس بن صدقة المزيدي أمير الحلة: بدأت المحاولة له بخيانة تقدم بها أحد الأمراء العرب: دبيس بن صدقة المزيدي أمير الحلة الواقعة جنوبي بغداد، والهارب من وجه الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بسبب استفزاره المستمر لهما وتآمره عليهما، قال للصليبيين بأن له أنصاراً في حلب، وأنهم متى رأوه على رؤوس المهاجمين سلموا إليه البلد ومما قاله للصليبيين: إن أهلها شيعة وهم يميلون إليّ لأجل المذهب، فمتى رأوني سلموا البلد إليّ، وبذل لهم على مساعدته بذولاً كثيرة[3]ووعد بلدوين أمير أنطاكية وجوسلين أمير الرها بأنه سيقدم لهما الكثير لقاء مساعدتهما له، وقال لهما: إنني أكون في حلب نائباً عنكم مطيعاً لكم[4]. وتمكن أخيراً - من التوصل مع الصليبيين إلى اتفاق تكون حلب بموجبه له، أما الأموال فتكون لهم، فضلاً عن بعض المواقع القريبة من حلب[5]، وتقدم بلدوين على رأس قواته ونزل على نهر قويق قريباً من حلب، وأفسد المناطق الزراعية المحيطة به، ثم رحل إلى حلب فنزل عليها في أواخر شعبان 518هـ، وتقدم جوسلين أمير الرها بصحبة دبيس بن صدقة[6] - وكان دبيس شيعياً كآبائه[7] - صوب ناحية أخرى من أعمال حلب، وقاما بتدمير مزروعاتها، وقدرت الخسائر بما يقرب من مائة ألف دينار، ومن ثم رحلا ونزل مع بلدوين على حلب، واجتمع بهم هناك خونة، آخرون من أجل تطمين مصالحهم واقتسام الغنائم في حالة سقوط حلب: سلطان شاه بن رضوان السلجوقي، عيسى بن سالم بن مالك العقيلي، ياغي سيان بن عبد الجبار الأرتقي.. وفرضوا جميعاً الحصار على حلب من شتى جهاتها[8]. ووطّنوا أنفسهم على المقام الطويل، وأنهم لا يغادرونها حتى يملكوها، وبنوا البيوت لأجل البرد والحر[9]، فضلاً عن ثلاثمائة من الخيام، بينما لم يكن في حلب يومها سوى خمسمائة فارس[10].

---

(1) الاعتبار ص 103، 120 - 121.
(2) دراسات تاريخية د. عماد الدين خليل ص 14.
(3) الكامل في التاريخ (642/8).
(4) ذيل تاريخ دمشق ص 212.
(5) الاعتبار ص 103، زبدة حلب (222/2 - 223).
(6) دراسات تاريخية د. عماد الدين خليل ص 15.
(7) سير أعلام النبلاء (613/19).
(8) زبدة حلب (225/2 - 226).
(9) الكامل في التاريخ (642/8).
(10) زبدة الحلب (224/2 - 225) دراسات تاريخية ص 15.

ج - أعمال استفزازية صليبية ضد أهالي حلب: بدأ الغزاة بشن هجماتهم الدورية على حلب، وقطعوا أشجارها، وأفسدوا بساتينها وزروعها في محاولة لتدمير اقتصادياتها التي تعتمد على الزراعة بالدرجة الأولى، كما قاموا بتخريب مشاهد المسلمين ونبشوا قبور موتاهم، وسلبوا أكفانهم، وجعلوا من توابيتهم أوعية يتناولون بها طعامهم وعمدوا إلى من لم تتقطع أوصاله منهم فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم أمام أنظار المسلمين المحاصرين في حلب، وجعلوا يصيحون: هذا نبيكم محمد!! وأخذت جماعة منهم مصحفاً من المشاهد المحيطة بحلب وصاحوا: يا مسلمين أبصروا كتابكم!! ثم ثقبه أحدهم بيده ثم شده بخيطين وربطه بأسفل برذون قريب فراح هذا يروث عليه.. وكلما أبصر صاحبه الروث يتساقط على المصحف الشريف صفق بيديه وضحك عجباً وزهواً[1].

د - المقاومة الحلبية الشعبية: لم يكتف الصليبيون بهذا، بل راحوا يمثلون بكل من يقع بأيديهم من المسلمين، فاضطر هؤلاء إلى مجاراتهم بالمثل، وكان يقود المقاومة الإسلامية القاضي أبو الفضل بن الخشاب الذي كان قد تمرّس عن أعمال الدفاع منُذ بداية العقد، وكان يملك شعبية واسعة في حلب فأصدر أوامره بتوجيه ضربات مباشرة في قلب معسكرات الغزاة فكانت جماعة من مقاتلي حلب تخرج سرًّا لتغير على هذه المعسكرات، فتقتل وتأسر وتقفل عائدة من حيث أتت... وفي الوقت نفسه كانت الرسل تتردد بين الطرفين للتوصل إلى اتفاق ولكن دون جدوى[2].

و - استنجاد أهالي حلب بأمير ديار بكر: ضاق الأمر بالمسلمين في حلب واعتصرهم الإرهاق والجوع، فاتفق أميرهم بدر الدين الأرتقي وجماعة من كبار المسؤولين على إرسال وفد من زعماء حلب إلى ديار بكر للاستنجاد بأميرها حسام الدين تمرتاش وتسلّل أعضاء الوفد الثلاثة ليلاً ومضوا إلى ماردين - قاعدة ديار بكر - ليستغيثوا بأميرها علَّه يولي اهتماماً لما تعانيه حلب من ويلات وعندما وصلوا إلى هناك كان حسام الدين منهمكاً في الاستيلاء على بلاد أخيه سليمان الذي كان توفي في تلك السنة، الأمر الذي دفعه إلى إهمال شؤون حلب وعدم الاستجابة لمطالب وفدها، وقد بقي أعضاء هذا الوفد فترة من الوقت في ماردين يحثون حسام الدين على التوجه إلى حلب لإنقاذها من الحصار، وهو يعدهم ويمنيهم ويماطلهم دون أن يقدم على أي إجراء فأعلموه أنهم لا يريدون سوى أن يصل بنفسه، والحلبيون يكفونه أمر الغزاة[3] إلا أن مساعيهم فشلت، وفي نهاية المطاف تمكن الوفد الخلاص من مراقبة حسام الدين التي فرضها عليهم حتى لا يغادروا ماردين للاستنجاد بأمير آخر، خوفاً من ازدياد ضعف مركزه وفقدانه مدينة حلب، واستطاع الوفد الاتصال بوالي الموصل السلجوقي آق سنقر البرسقي[4].

ز - آق سنقر البرسقي واستجابته لاستغاثة أهل حلب: كان البرسقي حينذاك مريضاً، وكان الضعف قد بلغ منه مبلغاً عظيماً، فمنع الناس من الدخول عليه إلاّ الأطباء ووصل إلى دبيس

(1) دراسات تاريخية ص 15.
(2) دراسات تاريخية ص 16، ذيل تاريخ دمشق ص 212.
(3) دراسات تاريخية ص 16.
(4) زبدة الحلب (227/2) دراسات تاريخية ص 17.

من أخبره بذلك، فأعلن البشائر في عسكره وارتفع عنده التكبير والتهليل، ونادى بعض أصحابه أهل حلب: قد مات من أملتم نصره؛ فكادت أنفس الحلبيين تزهق[1]، وعندما استؤذن للوفد الحلبي بالدخول أذن البرسقي لهم، فدخلوا عليه واستغاثوا به. وشرحوا له الأخطار التي تحيق بحلب ومدى الصعوبات التي يعانيها أهل المدينة، فأجابهم الرجل: إنكم ترون ما أنا الآن فيه من المرض، ولكني قد جعلت لله عليَّ نذراً لإن عافاني من مرضي هذا لأبذلن جهدي في أمركم، والذب عن بلدكم، وقتال أعدائكم ولم تمض ثلاثة أيام على مقابلته تلك حتى فارقته الحمى، وتماثل للشفاء، وسرعان ما ضرب خيمته بظاهر الموصل، ونادى قواته؛ لأن تتأهب لقتال الصليبيين وإنقاذ حلب، وفي غضون أيام معدودات غدا جيشه على أهبة الاستعداد فغادر الموصل متجهاً إلى الرحبة، وأرسل من هناك إلى طغتكين أمير دمشق وخير خان أمير حمص يطلب منهما مساعدته في إنجاز مهمته، فلبى هذان الأميران دعوته وبعثا عساكرهما للإنضمام إلى جيش البرسقي الذي كان قد تحرك آنذاك صوب بالس القريبة من حلب وأرسل من هناك إلى مسؤوليها وشرط عليهم - تسليم قلعة حلب لنوابه؛ لكي يحتمّى بها في حالة انهزامه أمام الصليبيين فأجابوه إلى طلبه، وما إن استتب الأمر لهؤلاء النواب واطمأن الرجال إلى وجود حماية أمينة في حال تراجعه، حتى بدأ زحفه صوب مواقع القوات الصليبية التي تطوّق حلب[2].

وصلت قوات طلائع البرسقي حلب يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة من سنة 518هـ وما أن اقترب البرسقي بقواته المنظمة حتى أسرع الصليبيون في التحول إلى منطقة أفضل من الناحية الدفاعية، فعسكروا في جبل جوسن على الطريق إلى أنطاكية، وهكذا غدوا في حالة الدفاع بعد أن كانوا مهاجمين، وخرج الحلبيون إلى خيامهم فنالوا منها ما أرادوا، بنيما اتجه قسم آخر منهم لاستقبال البرسقي والاحتفاء به لدى وصوله، وقد أدرك الرجل ما يرمي إليه الصليبيون بانسحابهم واتخاذهم موقفاً دفاعياً، فلم يتسرع بمهاجمتهم قبل أن يعيد تنظيم قواته من جديد، خوفاً من نزول هزيمة فادحة بعساكره قد تعرض حلب للسقوط، وأرسل طلائعه الكشفية لرد القوات المتقدّمة إلى معسكراتها في حلب وقال موضحاً خطته هذه: ما يؤمننا أن يرجعوا علينا ويهلك المسلمون؟ ولكن قد كفى الله شرهم، فلندخل إلى البلد ونقويه وننظر إلى مصالحه، ونجمع لهم إن شاء الله، ثم نخرج بعد ذلك إليهم. ومن ثم دخل البرسقي حلب، وبدأ بحل مشاكلها ورفع مستواها الاقتصادي والاجتماعي، فنشر العدل وأصدر مرسوماً برفع المكوس والمظالم المالية وإلغاء الصادرات، وعمّت عدالته الحلبيين جميعاً بعدما منوا به من الظلم والمصادرات وتحكم المتسلطين طيلة فترة الحصار الصليبي[3]، ولم يكتف البرسقي بذلك، بل قام بنشاط واسع بجلب المؤن والغلال إلى المدينة؛ كي يخفف من حدة الغلاء، ويقضي على الضائقة التي يعانيها الحلبيون، وما لبث النشاط الزراعي في منطقة حلب أن عاد إلى حالته الطبيعية، حيث استأنف المزارعون العمل في الأراضي التي شرّدوا

(1) دراسات تاريخية ص 17.

(2) نهر الذهب للغزي (86/3 - 87) دراسات تاريخية ص 18.

(3) زبدة حلب (229/2 - 230) دراسات تاريخية ص 19.

عنها، كما عاد النشاط التجاري إلى سابق عهده اعتماداً على ما تمتعت به المنطقة من أمن واستقرار[1]، وهكذا استطاع البرسقي أن يحطم الطوق الذي أحاط به الصليبيون حلب، وأن يخلِّص هذا الموقع الهام من أخطر محنة جابهته طيلة الحروب الصليبية ويوحده مع الموصل لأول مرة مُنذ بدء هذه الحروب، الأمر الذي أتاح لهذا القائد ولعماد الدين زنكي من بعده أن يفيد من هذه الوحدة لتحقيق انتصارات عديدة ضد الغزاة[2]يقول المؤرخ الإنكليزي المعاصر ستيفن رنسيمان:... سرعان ما غدت الإمارة التي شكلها البرسقي نواة لما قام بعدئذ بالشام من دولة إسلامية متحدة زمن الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ولم يكن الصليبيون الذين وحد بينهم نظام الملكية في بيت المقدس، يواجهون قبل ذلك زادت من ضعفها، وما حدث - إذن - من توحيد حلب مع الموصل يعتبر بدء توحيد الجبهة الإسلامية التي قدر لها أن تقضي في يوم من الأيام على قوة الصليبيين في الشام[3].

ح - مقتل البرسقي: في سنة 520هـ ثامن ذي القعدة، قتل قسيم الدولة آقسنقر البرسقي صاحب الموصل، بمدينة الموصل قتلته الباطنية يوم جمعة بالجامع وكان يصلي الجمعة مع العامة وكان قد رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به، فقتل بعضها، ونال منه الباقي ما أذاه فقص رؤياه على أصحابه، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام فقال: لا أترك الجمعة لشيء أبداً، فغلبوا على رأيه، ومنعوه من قصد الجمعة، فعزم على ذلك، فأخذ المصحف يقرأ فيه، فأول ما قرأ {وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً} [الأحزاب: 38]، فركب إلى الجامع على عادته، وكان يصلي في الصف الأول، فوثب عليه بضعة عشر نفساً عدة الكلاب التي رآها، فجرحوه بالسكاكين، فجرح هو بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله، وكان مملوكاً تركياً خيراً، يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله وكان من خير الولاة يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلي من الليل متهجداً[4].

ط - الباطنية من أخطر معوقات حركة الجهاد: أثبت الباطنية عداءهم الكامل لقادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، وكأن خناجرهم المسمومة كانت تشق للصليبيين طريقاً نحو تثبيت أقدامهم في بلاد الشام والجزيرة على حساب المسلمين وهكذا أثبتت وقائع التاريخ كيف التقى قادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر في بعض الأحيان - في الشهادة - فمن قبل اغتيل شرف الدين مودود، والآن نجد آق سنقر البرسقي يلقى نفس المصير، وقد عكس ذلك كله: أن مسلك الإسماعيلية النزارية في ذلك الحين كان من أخطر معوقات حركة الجهاد ضد الغزاة نظراً لوجود عدوين في وقت واحد أمام القيادات المسلمة السنية على نحو عكس المشاق البالغة التي واجهت أولئك القادة[5] في الدفاع عن عقيدة الأمة ودينها وأعراضها.

هذا وإن كان آقسنقر البرسقي قد استشهد فإن قائمة المجاهدين عامرة ومتأهبة للقتال في سبيل الله، ففي ربيع الآخر من عام 521هـ/1127م عهد السلطان محمود إمارة الموصل إلى عماد الدين

(1) دراسات تاريخية ص 19.
(2) المصدر نفسه ص 20.
(3) الشرق الأوسط والحروب الصليبية (345/1، 485 - 486).
(4) الكامل في التاريخ (651/8).
(5) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 161.

زنكي وبظهوره على مسرح الأحداث بدأت صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين[1]، وقد بدأ عماد الدين بتكوين جبهة إسلامية متحدة ضد الصليبيين فسيطر على القلاع القريبة منه مثل جزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار وبلاد الخابور وحران، ثم اتجه تفكيره بعد ذلك للاستيلاء على حلب، أكبر المراكز الإسلامية بشمال الشام، وواتته الفرصة عندما علم باضطراب الأحوال بها وتهديد كل من جوسلين الثاني صاحب الرها بوهيمند الثاني صاحب أنطاكية لها، فسارع عماد الدين زنكي إليها فلقيه أهلها بالبشر ودخل البلد في يوم الاثنين 13 جمادي الآخرة سنة 522هـ/ يونيو 1128م[2]واستولى عليه ورتب أموره وأقطع أعماله الجنود والأمراء، ويؤكد ابن الأثير على أهمية هذا الفتح بقوله: ولولا أن الله تعالى مَنَّ على المسلمين بولاية الشهيد لكان الفرنج استولوا على الشام جميعه[3]. وسوف يأتي الحديث عن عماد الدين والأسرة الزنكية في كتابنا القادم بإذن الله تعالى عن الحروب الصليبية في عهد الزنكيين وسيرة نور الدين محمود الشهيد الملك العادل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية ص48.
(2) الكامل في التاريخ (663/8).
(3) الكامل في التاريخ (664/8).